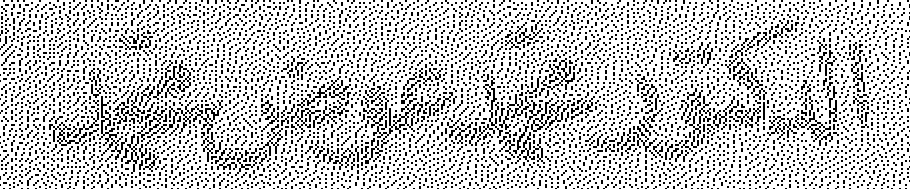
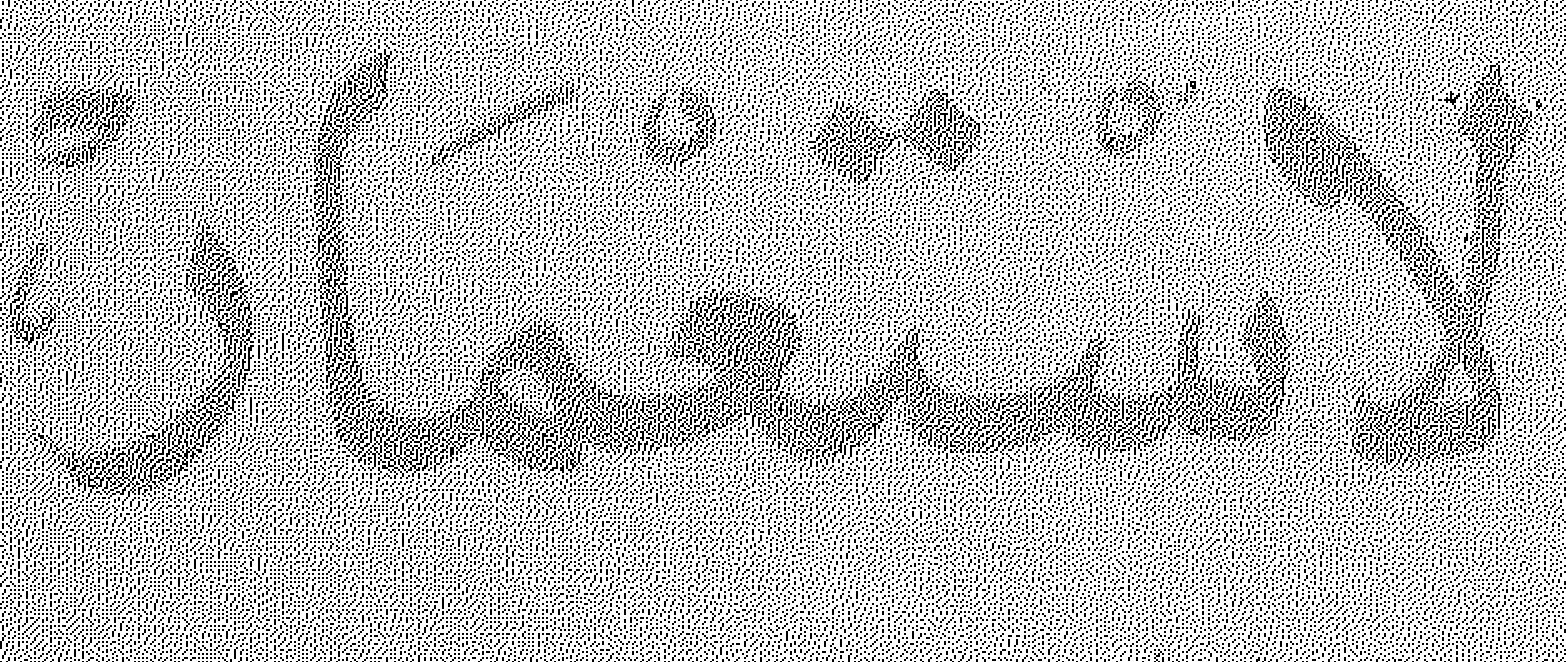




والمذاهب الاستعمارية

دار المعارف بمصر

الاسْتعْمَارُ

وَالمذاهبُ الاستعمَاريّة

الاستعمار

والمذاهب الاستعمارية

الأستاذ الدكتور
عبد العزيز برهام
رئيس قسم اللغة العربية
بكلية الآداب
الإسكندرية

تأليف

الدكتور محمد عوض محمد

الطبعة الرابعة منقحة



دار المعارف بمصر
١٩٥٧

فصول الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم للقارئ العربي هذه الصفحات ، فى وصف الاستعمار ومذاهبه ؛ غير قاصد منها إلى سرد تاريخ الاستعمار فى أى عصر من العصور القديمة أو الحديثة ؛ لأن هذا التاريخ الطويل جدير أن يستوعب المجلدات الضخمة والجهود الدائبة لقافلة من المؤرخين . وهنالك أسفار عديدة تروى تاريخ الاستعمار ، تارة فى دقة وأمانة ، وطوراً فى زهو وكبرياء ، وأحياناً فى تبجح واستعلاء ، وامتنان على الشعوب المغلوبة على أمرها . وذلك تبعاً لنزعات الكتاب وميولهم ، والسياسة التى يروجون لها . غير أن الهدف المنشود من نشر هذه الفصول ، هو التعريف بالاستعمار ، من حيث هو ظاهرة سياسية تسود العالم ، وتخلق علاقات بين الأمم والشعوب ، لا تنطوى على المساواة والعدل ، بل على القوة والبغى .

لذلك بدأنا البحث بشرح فكرة التفاوت بين الدول فى القوة والسلطان ؛ محاولين أن نوضح الأسس التى بنى عليها هذا التفاوت . إذ لا شك أن اعتداد القوى بقوته وجبروته واستغلال هذه القوة استغلالا مجحفاً ظالماً هو أساس الحركة الاستعمارية فى كل عصر . ثم حاولنا بعد ذلك أن نعرّف ظاهرة الاستعمار تعريفاً دقيقاً علمياً بقدر الإمكان . حتى نجردها من كل ما يحيط بها من الأوهام والترهات .

وقد هدى البحث إلى أن للاستعمار مذاهب وطرائق ، بعضها ينحو ناحية القهر والغلبة ، وبعضها يرمى إلى الاستغلال المالى ، وبعضها يقال عنه إنه أملته الضرورة العسكرية . لذلك لم يكن بد بعد أن نحاول شرح هذه المذاهب ، أن نعرض إلى تلك الأنواع ، وأن نضرب أمثلة مستقاة من حوادث التاريخ ، لكى تكون معالجتنا مبنية على الواقع المشاهد الملموس .

وقد استقينا هذه الأمثلة من جهات شتى ، أكثرها مما يتعذر على القارئ أن يعثر عليه فى كتب التاريخ المتداولة . وعلى الأخص فى المؤلفات الإنجليزية ، وهى النوع الشائع فى البلاد العربية .

كذلك لم نستق أمثلتنا عن الاستعمار من أحداث الشرق الأوسط أو البلاد العربية إلا نادراً ، لأن معظم الأحداث التى تعرضت لها هذه البلاد معروفة للجميع . ولم نستثن من ذلك سوى مشكلة الاستعمار الصهيونى ، الذى أفردنا له وصفاً مطولا ، لأن أبناء البلاد العربية مع الأسف لا يكادون حتى اليوم يدركون تمام الإدراك خطر هذا الاستعمار . مع أنه أشد وأضخم من أى خطر آخر تتعرض له البلاد العربية اليوم . وذلك لأن الاستعمار الأوربى يهددنا من الخارج ، أما الاستعمار الصهيونى فقابع فى قلب البلاد العربية ؛ كالداء الوبيل الكامن فى الجسم. والدول الاستعمارية تتناول سياستها ومشاريعها أقطاراً عديدة ، ولها خصوم أشداء يناصبونها العداء . أما الصهيونيون فإن مشاريعهم كلها منصبة على البلاد العربية ؛ وليس لهم خصم أو عدو سوى الشعوب العربية . فكل

جهودهم موجهة إلى الوطن العربى، وكل شرورهم موقوفة لإلحاق الأذى البالغ بأبناء ذلك الوطن .

فإلى القارئ العربى أسوق هذه الفصول وأنا مؤمن بأن الموضوعات التى نتناولها هى أجدر الموضوعات بالتأمل والدراسة .

والله ولى التوفيق .

الإسكندرية شعبان ١٣٧٢

مايو ١٩٥٣

محمد عوض محمد

الطبعة الثالثة

لم أضف فى هذه الطبعة غير فصل واحد ، يشتمل على وصف تحليلى للعدوان الغاشم الفاشل، الذى قامت به بريطانيا وفرنسا وإسرائيل . فعلى الرغم من أن تاريخه وأحداثه معروفة فإنه يمثل طرازاً خاصاً من العمل الاستعمارى ليس له نظير فى تاريخ الاستعمار كله .

م٠ع٠م

مقدمة

عالم : نصفه عبدٌ ونصفه حر

فى جميع أرجاء الأرض أقطار يصفها الناس بأنها « ممتلكات » ولن يكون من الصعب عليك أن تتعرف عليها . فهى مصبوغة فى الخرائط الجغرافية بمختلف الألوان من حمراء وزرقاء وخضراء : هذه ممتلكات بريطانية ، وتلك فرنسية ، والأخرى بلجيكية . وليست هذه الممتلكات قطعاً صغيرة أو أقطاراً محدودة المساحة . بل كثيراً ما تشمل قارة من أكبر القارات وأضخمها كقارة أفريقيا كلها التى ليس فيها قطر واحد ، ولا شبر واحد من الأرض لم يرزح هو وسكانه فى وقت من الأوقات تحت نير الحكم الأجنبى فى مختلف صوره وأشكاله . ومصر نفسها التى لم تكن يوماً ما جزءاً من ممتلكات بريطانيا ، كثيراً ما صبغت فى الخرائط باللون الأحمر وكثيراً ما تحدث عنها ساستها فى ساعات الغفلة بأنها داخلة فى ذلك النطاق المرن المسمى بالإمبراطورية البريطانية .

فعالمنا اليوم منقسم إلى قسمين : مالك ومملوك — والمالكون فئة صغيرة من سكان هذا الكوكب والمملوكون أقطار واسعة فسيحة ، وشعوب كبيرة العدد ، متنوعة الأجناس والألوان . . . هذه هى أعظم

الظاهرات السياسية فى عصرنا هذا ، وأحقها بالدراسة والبحث . ومهما حاولنا أن نلطف من هذه الظاهرة ، فإننا لن نستطيع أن نصفها إلا أنها عبارة عن استعباد سياسى ، فإن العلاقة بين الطرفين لا يمكن وصفها إلا بأنها كعلاقة الحر بالعبد ، والسيد بالمسود . فالشعب المالك يتمتع بحريته ويسير وفق إرادته . والمملوك مسير لا مخير ، ليس له من الإرادة فى تصريف أمره وتكييف مجرى حياته إلا بمقدار ما يسمح به سيادة المالك المهيمن .

ولقد يحصل المالك على مملوكه هذا بواسطة البيع والشراء ، كما اشترت أمريكا ألسكا من روسيا ، والفيليبين من أسبانيا ، وقد يستولى عليه بالفتح والغزو ، كما استولت إيطاليا على أثيوبيا وليبيا ، أو بالمكر والخديعة ، أو بمزيج من التمويه والغزو ، كما فعلت بريطانيا فى احتلال مصر ؛ بل قد ينال المالك بعض الممتلكات عن طريق الهبة أو الهدية كما حصلت بريطانيا العظمى على جزيرة قبرص من الدولة العثمانية فى مقابل خدمة قدمتها لها — حتى وصفها الكتاب بأنها من قبيل « السمسرة ».

وهكذا نرى أن المقارنة بين ظاهرة الاستعمار الدولى وبين العبودية الفردية مقارنة لا تتناول المظهر العام وحده ، بل تتجاوزه إلى التفاصيل الجزئية أيضاً . ولذلك ليس من الإسراف فى شيء أن نصف الاستعمار بأنه استعباد سياسى تصبح فيه إرادة الشعوب وحياتها مسخرتين لإرادة الشعب المالك ، وللسياسة التى يريد أن يسلكها .

ولسنا نريد أن نزعم أن الاستعمار يتخذ صورة واحدة فى جميع

الظروف والأحوال . فكما أن علاقة السيد بالعبد قد اختلفت باختلاف الزمان والمكان ، وباختلاف نزعات السادة ، وما قد يكون للعبد من مزايا أو من استعداد خاص ؛ كذلك يتخذ الاستعمار اليوم صوراً شتى ، فقد يؤدى إلى التسلط التام على الأرض وسكانها — كما هى الحال مثلا فى كينيا — حيث زُحْزِح السكان الأصليون عن أرضهم ، وحرموا حق الانتفاع بها ، لكى يملكها ويستغلها المستعمر الأجنبي . ومن الجائز أن تترك الأرض لسكانها يستغلونها ويزرعونها كما هى الحال فى غرب أفريقية ، على أن يجرى هذا الاستغلال وفق إرادة الدولة صاحبة السيادة . وقد يكتفى المستعمر أحياناً بحق الاحتلال العسكرى ، أو حق « التدخل » فى طائفة من الشئون يرى من الواجب أن تسير وفقاً لمصلحته ، وإن خالفت مصلحة السكان أصحاب البلاد الشرعيين .

وليس الاستعمار بالأمر الحديث . فقد شهد العالم القديم إنشاء دول ضخمة مثل إمبراطورية بابل وآشور وإيران ، ومثل الدولة الرومانية . وفى العصور الوسطى قامت الدولة العربية واتسعت رقعتها حتى شملت شطراً كبيراً من العالم القديم . كما أنشأ المغول دولا عديدة فى شرق آسيا وغربها ، حتى بلغ سلطانهم القارة الأوربية نفسها .

لكن هنالك فروقاً واضحة بين الاستعمار القديم والحديث ؛ وسنحاول إظهارها فى الفصول التالية ومنها يستبين أن الاستعمار الحديث فى ظروفه وملابساته ، التى نشاهدها اليوم ، هو إثم من أكبر الآثام ، وإجرام بشرى ليس له نظير فى التاريخ كله .

ومن العجيب فى هذا الاستعمار الحديث الذى يتمثل فيه أسوأ مظاهر الاستغلال والاستبداد والتخريب والتدمير ، أنه من صنع دول تدين كلها – عدا اليابان المقلدة – بالدين المسيحى ، وهو ذلك الدين السمح الكريم ، الذى شعاره الحب والعطف والمساواة . فقد استطاعت دول أوربا أن تمسخ المسيحية مسخاً شنيعاً ، بحيث استحالت فى دماء سكانها إلى صلف وتكبر وتعاظم وإلى تعصب ممقوت ، لم يلبث بعد أن سفك من دماء الأوربيين ما سفك ، وألحق بهم من الدمار ما ألحق ، أن تحول إلى بغى وعدوان على شعوب الأرض جميعاً . يتسلط عليها بروح من الجشع والتعالى هى أبعد ما تكون عن روح الدين المسيحى الكريم .

ويأبى العدل الإلهى إلا أن يحيق المكر السيئ بأهله ، وأن يكون الاستعمار سبيلا إلى تعذيب الدول الاستعمارية وإذاقتها ضروب الويل والشقاء ، فقد كان لبعض الدول فى الميدان الاستعمارى ميزة السبق لأنها دخلته قبل سواها . ولذلك رأينا دولة صغيرة مثل البرتغال لها ممتلكات واسعة ، وهولندة تبسط سلطانها على جزر الهند الشرقية ، وبريطانيا تستولى على الهند فى وقت مبكر ، قبل أن تتكون دول مثل إيطاليا وألمانيا . ثم جاءت الحركة الاستعمارية الحديثة فى القرن التاسع عشر ، فاستولت بريطانيا على نصيب الأسد فى أفريقية ؛ ودخلت ألمانيا وإيطاليا الميدان متأخرتين فلم تفز ألمانيا إلا بنصيب زهيد ، وكان نصيب إيطاليا بالغاً حد التفاهة . فاشتد التنافس ، وأخذت الدول يكيد بعضها لبعض ،

وتتنافس فى بناء الأساطيل واتخاذ الأهبة للحروب . ومهما حاول المؤرخون أن يجدوا أسباباً مختلفة للحربين العالميتين الأولى والثانية ، فليس هناك أدنى شك فى أن أهم تلك الأسباب التنافس الشديد فى الميدان الاستعمارى وحرص كل دولة كبيرة على أن تنال ما تدعوه « نصيبها » من التوسع والتملك ؛ فقد جعلت السياسة الاستعمارية شهوة التملك أمراً مألوفاً كأنه حق من الحقوق المقررة .

وهكذا نرى شهوة الاستعمار تسمم العلاقات الدولية وتوغر صدور الأمم ، وتوقد نيران حروب تلتهم الأخضر واليابس وتزداد فتكاً وتخريباً على مدى الأجيال ، كذلك نرى الاستعمار قد أفسد الأخلاق السياسية ، وانحط بها إلى الدرك الأسفل من الكذب والرياء والتضليل ، وإخلاف العهود ، والحنث بالأيمان والمواثيق ، حتى رأينا دولة مبجلة مثل بريطانيا العظمى يطلق عليها الكتاب فى أوربا اسم البيون الحانث « Perfide Albion »

ولكن هذا الخلق لم يلبث أن شاع وانتشر ، وهـــذه البذرة الشريرة لم تزل تنمو وتتكاثر على مدى الزمن حتى رأيناها تنضج فى أكمل صورها وأضخمها فى سياسة ألمانيا النازية ، التى استطاعت أن تتقن التقليد كل الإتقان ، وأن تجارى فى نقض العهد والخيانة أبرع الدول فى هذا الميدان .

هذا وقد تناولت شهوة الاستعمار الأوربى بلاد العالم العربى كما تناولت غيره من الأقطار . وبيتت له شر النيات وأضمرت له خططاً كلها ظلم وإرهاق ، مع أن العالم العربى وارث حضارات مجيدة ، وطالما

رفع لواء العلم والعرفان ، واستظل العالم بفضله ظل الأمن والعدل دهراً طويلا . فلم تتورع المخالب الاستعمارية من أن تنشب أظفارها في قلبه ، وأن تكيد له أمرّ الكيد . واشتد غيظ الاستعمار حين رأى أن الشعوب العربية تأبى الضيم ، وتحرص أشد الحرص على أن تنعم أوطانها بكامل حريتها واستقلالها . وزاد فى غيظه أن رأى أن أبناء هذه الشعوب لا يقلون عن المستعمرين ذكاء وفهماً ، ويستطيعون أن يجاروهم فى ميدان التقدم والرقى . فاضطر الاستعمار لأن يسفر عن حقيقته البشعة ، فأخذ يرتكب الإثم والمنكر جهاراً فلا يتورع عن الالتجاء إلى أسلحة التخريب والتدمير ، ويصب على الأمم البريئة جام غضبه لأنها لم تخضع ولم تهن ، وحاول أن يغرر بها باتخاذ أسماء جديدة مثل الانتداب والوصاية والحماية ، فلم تؤثر فيها الخديعة ولا الرياء ، بل مضت فى جهادها لنيل حقها الشرعى فى الحرية والحياة الكاملة .

وما أجدرنا ، نحن أبناء البلاد العربية ، التى ما برحت تكافح الاستعمار والمستعمرين ، أن ننعم النظر فى الأسس السياسية الدولية التى تولدت منها ظاهرة الاستعمار الحديث ، وأن نفكر فى طبائع هذا الاستعمار وأساليبه وأن نحلل تلك الظاهرة تحليلا علمياً ، يكشف لنا عن خصائصها المختلفة .

وذلك ما سنحاوله فى الفصول التالية .

١

المسرح الجديد للسياسة الدولية

الأرض ملعب – كما قال شاكسبير – والناس على ظهرها فرقة تمثيل . . . وهؤلاء الممثلون ضروب وشكول ، وألوان ، منهم الجليل والضئيل ، ومنهم القصير والطويل ، والبدين والنحيل ، والتافه الذى لا يؤدى إلا عملاً تافهاً مثله . والقوى الجبار الذى يحتل صدر المسرح ، ويروح ويغدو فى زهو وكبرياء . ومنهم القسيم الوسيم ، الحسن البزة والشارة ، المدجج بالسلاح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، ومنهم من يسعى فى أسمال بالية وثياب ممزقة رثة وهو أعزل من السلاح ، وقد ألحت عليه الأمراض والعلل ، فسعاله لا ينقطع ، ودمعه لا يرقأ . . . وفى الممثلين طوائف لها صور وأجسام ، وليس لها إرادة ولا روح . إذا تحركت أو ضحكت فإنها لا تفعل ذلك بمحض رغبتها وإرادتها ، بل لأن وراء الستار شخصاً يحركها ويضحكها ، وذلك بواسطة حبل يمسكه بيده ، يجذبه ذات اليمين فتتحرك ذات اليمين ، ويجذبه إلى الشمال فتتحرك نحو الشمال . ثم يديره إدارة فنية فترقص تلك الصور وتلعب ، أو تضحك وتطرب . .

وللقارئ الحق – كل الحق – فى أن يصف ما يجرى على المسرح بأنه مأساة أو مهزلة أو ملهاة أو رواية – كما قال شوقى – لم تتم فصولها .

فذلك أمر متروك لحصافة القارئ ولباقته . .

والآن – وقد مهدت لموضوعى بهذه المقدمة الوجيزة ، يمكننى الآن أن أدعو القارئ لأن يجلس معى لنتأمل فى هذا المسرح الطريف ، ولنلق نظرة على أكابر الممثلين فيه .

قضى النظام – أو إن شئت عدم النظام – السياسى لعالمنا هذا أن يقسم سطح الأرض إلى أقسام تسمى وحدات سياسية ، وهذا التقسيم يشمل سطح الأرض كله ، أو على الأقل ذلك الجزء من سطح الأرض الذى لم تغمره البحار والمحيطات ، وتركته جافًّا يابساً . طافياً فوق سطح الماء ؛ استولى الإنسان على هذا اليابس وقسمه إلى وحدات سياسية ، بحيث لم يترك شبراً واحداً من الأرض إلا أدخله فى واحدة منها . وهذا التطور السياسى الكبير ، لم يتم كله إلا فى نهاية القرن الماضى . ورسم الإنسان بين هذه الوحدات « حدوداً » ترينا فى وضوح وجلاء أين تبدأ كل وحدة وأين تنتهى ، وأمكننا بذلك أن نقدر مساحتها وعدد سكانها .

ومع أن هذه الحدود والتقسيمات السياسية من صنع الإنسان ، وليست منطبقة دائماً على ظاهرات طبيعية ، فإنها أصبحت – برغم ذلك – محاطة بنوع من الحرمة والقداسة ، كأنها جبال قائمة لا تتزعزع . ولا بد من حروب دموية ، ومعارك طاحنة لكى تحرك هذه الحدود عن مواضعها.

وهكذا أصبح هذا العالم الإنسانى مقسما إلى وحدات تختلف فى الحجم (المساحة) وفى عدد السكان ، وفى مواردهم الاقتصادية ، وفى حظهم من الرفاهية والرخاء والتعايم . وإذا صرفنا النظر عن الأقطار التابعة

لغيرها ، تبقى لدنيا وحدات سياسية نسميها « الدول »، تتصرف كل دولة منها فى مساحة محدودة من سطح الأرض ، هى صاحبة الأمر والنهى فيها إلى حد كبير . ولا أستطيع أن أذكر عدد هذه الدول على وجه التدقيق خشية أن يفوتنى بعضها ، ولكن عددها من غير شك يربو على السبعين وقد يتجاوز الثمانين — ولكيلا يكون هناك مجال للبس أريد أن أنص صراحة على أن هذه الدول تشمل دولة مثل كندا وأستراليا واتحاد أفريقيا الجنوبية ، وزيلندة الجديدة وإيرلندة الحرة . فإن هذه كلها دول ذات سيادة ، وإن كانت داخلة ضمن الاتحاد البريطانى .

قضت الظروف إذن أن يقسم سطح اليابس بين نحو ثمانين دولة منفصلة غير متساوية ولا متكافئة ، وإذا كنا نحن معشر الآدميين لا نتساوى كأفراد لا فى الطول ولا فى العرض ولا فى الوزن ولا فى الثقافة والعلم والسن ، فيجب ألا نعجب إذا رأينا الدول تتفاوت هى أيضاً فى الحجم والوزن وغير ذلك من الاعتبارات .

وقد ترتب على ما نشاهده من الاختلاف الكبير بين الدول أن أصبح بعضها يدعى صراحة: الدول الكبرى. وقبل الحرب كان فى العالم سبع دول كان يطلق عليها باتفاق الجميع هذا الوصف، ولا أعرف أن كاتباً أو مفكراً سياسياً قد حاول أن يتحدى هذه التسمية أو ينادى ببطلانها . من هذه الدول خمس فى أوربا وهى ، بحسب الترتيب الأبجدى: ألمانيا وإيطاليا وروسيا وفرنسا والمملكة المتحدة . واثنتان خارج أوربا وهما الولايات المتحدة فى أمريكا الشمالية ، واليابان فى آسيا .

وهذا التمييز بين الدول اعترفت به عصبة الأمم فى نظمها ودستورها ، إذ خصصت لكل من الدول الكبيرة أثناء وجودها فى حظيرة العصبة ، كرسياً ثابتاً فى مجلس إدارتها ، فى حين ينتخب من الدول الأخرى عدد محدود ليكون فى المجلس بضع سنين ثم يخلى مكانه لغيره من الدول غير الكبيرة .

وقد أحفظ هذا النظام بعض الدول التى كانت تطمع فى أن تدخل فى نطاق الدول الكبرى ، وأرادت أن يكون لها كرسى ثابت لا يتزعزع فى مجلس العصبة . وهذه الدول هى — بوجه خاص — البرازيل ، وأسبانيا ، وبولندة . فتقدم كل منها فى وقت من الأوقات يطالب بمكان ثابت فى المجلس ، ولكن طلبه قوبل بالرفض التام واستقالت البرازيل بعد ذلك من العصبة ، ولم تشترك فى أعمالها . ولا شك أن هذه الدول الثلاث فى حالة وسط — أى أنها على هامش الحدود بين الدول الكبيرة وغير الكبيرة — وقد عز عليها بوجه خاص أن ترى ألمانيا وهى الخصم اللدود تنضم إلى عصبة الأمم عام ١٩٢٥ فتمنح مكاناً دائماً فى المجلس ، وتحرم هى ذلك الامتياز .

والآن يحسن بنا أن نفكر قليلا فى المقياس الذى تقاس به الدول ، إذا كان من الممكن أن نجد هذا المقياس ، والذى بمقتضاه سمحنا لأنفسنا أن نصف دولة مثل إيطاليا واليابان بأنها من الدول الكبيرة ، وأبينا أن نطلق هذا الوصف على دولة مثل هولندة وبولندة والبرازيل والسويد .

ولنبدأ بحثنا باستعراض العناصر المختلفة التى تتميز بها الدولة لكى

نتمكن من الموازنة بين تلك العناصر ، لعلنا نهتدى إلى أيها أكبر خطراً فى تصنيف الدول ، ورفع بعضها فوق بعض درجات ؛ فإننا إذا وصفنا رجلا بأنه عظيم فلا بد لنا أن نبنى هذا الوصف على بعض الاعتبارات الجسدية أو الثقافية أو العقلية أو المالية ، أو على هذه كلها أو بعضها . أما فى الدول فإننا نستطيع أن ننظر إلى الأمور الآتية : المساحة — عدد السكان — درجة الثقافة والتعليم — حظ الأمة من الرخاء وخفض العيش — مقدرة الشعب الاقتصادية (الإنتاج الزراعى والصناعى) — امتلاك المستعمرات — التفوق الحربى .

وعلى الرغم مما قد يعترى القارئ من الضجر لا بد لنا أن نعرض لكل من هذه العناصر على حدة :

١ — المساحة :

لننظر أولا إلى المساحة — فإن الاختلاف فيها معناه أن بعض الدول تستأثر بنصيب عظيم من سطح اليابس وتتفوق فى هذا على غيرها من الدول . ولا شك أن بعض الدول الكبيرة ذات مساحة عظيمة مثل الولايات المتحدة وروسيا . ولكن أراضى سائر الدول الكبرى متوسطة فى المساحة — فإيطاليا أصغر مساحة من بولندة وأسبانيا وفنلندة وبلاد السويد والنرويج وتركيا . والمملكة المتحدة (المؤلفة من إنجلترا وبلاد الغال وإسكتلندة وشمال أرلندة) أقل فى المساحة من إيطاليا وبالتالى فهى أقل من تلك الدول ومن دول أخرى كثيرة مثل يوجوسلافيا ورومانيا .

وكذلك إذا نظرنا إلى دول عظيمة الرقعة مثل البرازيل (وهى تزيد على أوربا) أو أستراليا أو كندا فإننا نجد مساحة هائلة ولكن الدول التى تسيطر عليها ليست معدودة فى الدول الكبرى .

فهل معنى هذا أن المساحة عنصر قليل الخطر لا يقام له وزن بين الدول ؟ وكيف يمكن أن تكون المساحة عنصراً ضئيل الخطر مع أن الأرض هى « المجال الحيوى » وهى مواطن الشعوب ومصدر خيراتها وينبوع ثروتها ؟ . . ومن أجل الأرض تناحرت الشعوب واستعرت الحروب . . ولئن كانت ألمانيا قد أثارت فى العالم حرباً شعواء من أجل أقليم صغير يدعى دانزج — فكيف يجوز لقائل أن يزعم أن الأراضى ليست بالأمر الكبير الخطير ؟

والرد على هذا الاعتراض هو التسليم بأن المساحة عنصر من عناصر القوة لكل دولة من الدول ، ولكن الدول — مع هذا — لا تتفاوت ولا يفضل بعضها بعضاً لمجرد المساحة ، وذلك لأمرين : أولهما أن العبرة فى المساحة بالكيف لا بالكم ؛ ورب ميل من الأرض خير من ألف ميل . وثانيهما أن هنالك اعتبارات أخرى لا تقل خطراً عن مجرد المساحة مثل موارد الثروة التى تشتمل عليها تلك الأرض وما عمله السكان للانتفاع بتلك الأرض . وهكذا نصل إلى الاعتبار الثانى الهام وهو :

* * *

٢ ــ عدد السكان :

ولا شك فى أن عدد السكان عنصر من أهم العناصر التى توزن بها أقدار الدول ، وكثيراً ما نسمع الناس يفخرون بأن عددهم ضخم كبير . . وليس الوقت ببعيد يوم كنا نسمع صيحة من زعيم إيطالى عظيم ينبئ العالم أن لديه ثمانية ملايين من الحراب ، معدة مهيأة ليوم من الأيام ، فلم يكن أحد يجرؤ بعد هذه الصيحة المدوية أن ينكر أن إيطاليا من الدول الكبيرة .

أجل عدد السكان أمر خطير ، والدول الخمس الأوربية التى سلم الجميع قبل الحرب أنها من الدول الكبرى ، هى فى الوقت نفسه أكثر دول أوربا سكاناً . إذ لا يقل عدد سكان إيطاليا ، وهى أصغرها عن ٤٢ مليوناً من الأنفس . بقطع النظر عما بأيديهم من السيوف والحراب .

ويلى هذه الدول الخمس فى السكان بأوربا بولندة التى بلغ عدد سكانها ٣٥ مليوناً ، ولهذا رأيناها تطمح لأن تعد فى جملة الدول الكبرى ، ولكن طلاب الجغرافيا السياسية يعلمون أن ذلك الطموح سابق لأوانه لأسباب كثيرة ، منها أن بولندة دولة حديثة التكوين ، ولم تندمج بعد الاندماج الكافى ، وسكانها يشتملون على عدد كبير من العناصر غير البولندية . فقد كان فيهم بضعة ملايين من اليهود ، وعدد لا يستهان به من الروس ، وبضعة ملايين من الألمان ، وغير هؤلاء من الأجناس . ومع أن سكان بولندة اليوم أكثر تجانساً فإن المقاييس قد تغيرت أيضاً

بعد الحرب العالمية الثانية .

وإذا نظرنا خارج أوربا نرى أن البرازيل تضارع فرنسا وإيطاليا فى عدد السكان ، ولكن نسبة عالية من سكانها تتألف من المهاجرين الذين لم يندمجوا بعد ، بل أكثرهم لا يعرف لغة البلاد ، ولم يتشرب روحها وتقاليدها . ومع أننا نتوقع أن تصبح البرازيل يوماً فى عداد الدول الكبيرة ، فإن هذا اليوم لم يحن بعد .

كذلك الصين لم تكن تعد فيما مضى من الدول الكبرى ، مع أن الشعب الصينى يحتل مساحة كبيرة من الأرض ، ويعيش فى وطن غنى التربة ، طيب الهواء ، وافر الماء ، كثير المعادن والكنوز ؛ والسكان أكثر شعوب الأرض عدداً ؛ إذ يزيدون على ٥٠٠ مليون من الأنفس ، والشعب الصينى عريق فى الحضارة المادية والأدبية ، وطالما أنجب الحكماء والعلماء ، وكان مضرب الأمثال فى التفوق الفنى على مدى العصور .

لماذا — إذن — لم تكن الصين من قبل تحسب فى عداد الدول الكبرى ، مع أن اليابان التى اقتبست حضارتها من الصين كانت تعد واحدة من تلك الدول ؟ . أيمكن أن يكون هنالك خطأ فى الموازين التى توزن بها الدول ، ولهذا لم تدخل الصين فى عداد الدول الكبرى ؟

كلا ! ليس هنالك خطأ فى المقاييس ، ولم يكن الكتاب السياسيون مخطئين إذ لم يعدوا الصين قبل الحرب الأخيرة من الدول الكبيرة ، وهذا للأسباب الآتية :

السبب الأول : أن الشعب الصينى كانت تعوزه الوحدة السياسية

التى تمكنه من أن يعمل فى الأوقات العصيبة، وهو موحد الرأى متفق الكلمة . كانت كل واحدة من مديريات الصين تتمتع بالاستقلال التام ولم يكن للحكومة المركزية نفوذعظيم ، ولذلك اتجهت جهود الزعماء فى الزمن الحديث إلى تنظيم التعاون بين الولايات الصينية ، وخشيت اليابان نجاح هذه الجهود ، فبادرت بالإغارة على الصين عام ١٩٣١ ثم عام ١٩٣٥ .

السبب الثانى : أن الشعب الصينى تعوزه وحدة الثقافة . فإن فى الصين لغات عديدة أشهرها لغة ماندرين ؛ التى توشك اليوم أن تكون هى اللغة الرسمية للبلاد كلها .

السبب الثالث : أن الحضارة الصينية القديمة لا تكفى فى نظر رجال السياسة اليوم ، بل لا بد من مجاراة الحضارة الحديثة ، سواء أكانت هذه المجاراة خيراً أو شرًّا .

وكان الأمل قويًّا ، على الرغم مما كان يبدو من علامات الانشقاق بين الأحزاب الصينية ، أن الجهاد العنيف الذى احتملته الصين ، والخطوب التى عانتها فى هذه الحرب الضروس ، ستخلق فى أبنائها شعور الوحدة والتعاون ، وروح القومية المشتركة . وكثير من الكتاب يرى أن حكومة بكين قد حققت ذلك الأمل .

وما يقال عن الصين ينطبق إلى حد بعيد على الهند الكثيرة السكان الغنية الموارد ، ولكنها إلى جانب هذا قد تنوعت وتعددت فيها اللغات والثقافات واشتملت على إمارات مستقلة أو شبه مستقلة . فإذا أمكن

التغلب على هذه العقبات ، وقد أمكن التغلب على أكثرها ، جاز لنا أن نتوقع أن نرى الهند أيضاً فى عداد الدول الكبيرة .

وصفوة القول أن عدد السكان عامل خطير فى قوة الدولة . وأن الأقطار القليلة السكان لا تستطيع أن تطمح إلى احتلال مركز ممتاز بين الدول ، فهناك دول صغيرة لا يحول بينها وبين بلوغ مرتبة الدول الكبرى سوى قلة السكان ، مع أن أبناءها يضارعون أرقى الشعوب فى أى قطر من الأقطار. فى هولندة مثلا وسويسرة وبلجيكا ودانمارك وتشيكوسلوفاكيا أمم تتمتع بأوفر قسط من التقدم والرقى الثقافى والأدبى ، ولكن حالت قلة عددهم دون بلوغهم مرتبة الدول الكبيرة .

ولا عبرة بما يقال من أن مخترعات جديدة مثل القنبلة الذرية ونحوها ستسوى بين الدول ، فإنها إذا أصبحت ملكاً للجميع زال أثرها كعامل يميز بين الدول .

وهكذا نرى أن صغر المساحة وقلة السكان عائقان لا يستهان بهما فى تقدير الدول طبقاً للموازين المقررة أو شبه المقررة لدى الكتاب السياسيين .

والآن أعرض بسرعة للعناصر الباقية من عناصر القوة الدولية ، وسأتناولها باختصار لأنها متصلة ومرتبطة بما تقدم ذكره أشد الارتباط .

٣ ــ الثقافة :

لا أظن أن أحداً منا يشك فى أن الشعب الذى بلغ شأواً كبيراً فى العلم والفن ينال بهذا مرتبة عظيمة من التقادير ، ويؤهل نفسه بهذا لمكان

محترم بين الشعوب ؛ والرقى الثقافى يجعل الأمة الصغيرة العدد أعظم خطراً من أمة قد تفوقها فى العدد ، ولكنها تقصر عنها فى ميادين العلوم والفنون . وقبل الحرب كان العالم ينظر إلى ألمانيا على أنها من أعظم دول العالم ، لا بسبب استعدادها الحربى ، بل لما اشتهرت به من التفوق والنبوغ فى ميادين العلم والاختراع .

٤ ـ مستوى المعيشة :

من الأمور التى يجوز أن تخطر للمرء كمقياس لتقدم الأمم ، مستوى معيشتها ـ أى درجة تمتع السكان جميعاً بأسباب الراحة والرفاهية ، مثل طيب الغذاء ، وكفاية الملبس والمسكن والعناية الصحية ، ووفرة فرص التعلم والتأدب ؛ فيكون مقياس عظمة الدول درجة تحررها من الفاقة والمرض والجهل والإجرام .

هذا المقياس يبدو لأول وهلة كأنه المقياس العادل ، ولو أننا اتبعناه فى تقديرنا لكانت أرقى دول العالم دولة مثل زيلندة الجديدة أو دانمارك أو سويسرة أو هولندة ، حيث يتمتع السكان بمعيشة أرقى وأمثل مما نجده فى جميع الدول الكبرى على الإطلاق .

أما السبب فى أن هذا المقياس لا يؤخذ به ، فهو أنه فى الحقيقة مقياس لرقى « المجتمع » وليس مقياساً لقوة « الدولة » ؛ ولا يكفى ـ مع الأسف ـ رقى المجتمع وحده لإحراز ذلك النفوذ العظيم فى العالم الذى يؤهل الدولة للمكانة الأولى بين الدول .

٥ ـ امتلاك المستعمرات :

ولقد يخيل إلينا أن الدول صاحبة المستعمرات هي أكبر دول العالم ، وأن امتلاك أقطار فيما وراء البحار ، أو فيما أمام البحار ، شرط أساسى للتفوق بين الدول . وقد وقرت هذه الفكرة فى نفوس كثير من الناس ، وطالما لعبت بعقول الساسة ، وكانت سبباً فى إثارة الحروب والاضطرابات الدولية ، وقد نادت ألمانيا من قبل بأن لها « حقًّا » فى حيازة المستعمرات ، وكذلك طالبت بولندة بمثل هذا وها هى ذى إيطاليا قد أقحمت نفسها فى الحرب العالمية الأولى والثانية من أجل أطماعها الاستعمارية ، وقد ساقتها هذه السياسة إلى التمزق والدمار وكادت أن تقضى القضاء الأخير على الشعب الإيطالى الممتاز بين شعوب أوربا بمواهبه الفنية والأدبية .

وعلى الرغم مما وقر فى الأذهان من أن المستعمرات سبيل إلى العظمة أو أنها من مكملات العظمة ، فإنها فكرة خاطئة ، بل هى فى الحقيقة إقرار بالحقارة والضعة ، لأن الدولة التى تظن أنها لا تعظم إلا بمستعمرة تحوزها ، تعترف ضمناً بأنها عاجزة عن أن تكون عظيمة بنفسها وبأبنائها ومواردها .

وأسوق هنا دليلا على خطأ هذه الفكرة أمرين : أولهما أن هنالك دولا لا تقتنى مستعمرات ، وكانت مع ذلك معدودة فى الدول الكبرى ، ولا يعارض فى هذا أحد ؛ منها ألمانيا كما كانت قبل الحرب ـ بل قبل العهد النازى نفسه ـ ومثل إمبراطورية النمسا والمجر قبل عام ١٩١٤ ،

والولايات المتحدة فى أمريكا الشمالية ليس لها مستعمرات تستحق الذكر ، وإيطاليا نفسها لم تكن تملك قبل الاستيلاء على الحبشة سوى بضع مساحات صحراوية قليلة النفع . وأظن أن جميع العقلاء يسلمون بأن الاستيلاء على الحبشة — فترة من الزمن — لم يزد فى عظمة إيطاليا شيئاً .

الأمر الثانى : أن هناك دولا صغيرة تملكت مستعمرات واسعة الأرجاء ، نخص بالذكر منها هولندة وبلجيكا والبرتغال .

ومع ذلك فإن هذه الدول لم تكبر بهذا ولم تعظم ، ولم تبلغ بمستعمراتها مرتبة ترفعها عن كونها دولا صغيرة .

٦ و ٧ — التفوق الاقتصادى والحربى :

إن التفوق فى الميدان الاقتصادى ، أى فى إنتاج الغلات الزراعية ، والصناعية ، والتفوق الحربى ، هما فى الحقيقة أمر واحد . ومع التسليم بأن « صفة » المحارب لا يزال لها بعض الشأن فى الحروب الحديثة ، فإن « عدة » المحارب والأدوات الجهنمية التى يحارب بها لها شأن أكبر وأخطر . فلقد انتهى الزمن الذى كان فيه البطل الصنديد يقف منفرداً والسيف يلمع فى يمينه والدرع السابغة على جسده وينادى : هل من مبارز ؟ هل من مناجز ؟ ثم يكر على الصفوف فيقتل الألوف ويوزع الحتوف . لئن جاز مثل هذا الأمر فى العصور الغابرة فإنه لن يجوز فى عصرنا هذا . وإنما التفوق الحربى اليوم هو فى إنتاج المدافع والطائرات والسفن والدبابات والقنابل المدمرة المخربة ، وسائر العدة الحربية ، التى لا تكاد تقع تحت

حصر . وهذه العدة ما هى إلا جزء من الإنتاج الصناعى لكل دولة . ولهذا كان التفوق الاقتصادى والحربى فى الواقع شيئاً واحداً .

ويستند التقدم الاقتصادى إلى أمرين : أولهما خاص بالبلاد ، والثانى خاص بالسكان . فأما البلاد فيقاس تفوقها بوفرة الغلات الزراعية ، ووفرة الوقود اللازم لتوفير القوة ، ووفرة المعادن والمواد الأولية اللازمة للصناعة ، ويوشك ألا يكون بين الدول الكبرى التى ذكرناها من تتوافر لديها جميع عناصر الإنتاج الاقتصادى ؛ فألمانيا قليلة البترول والنيكل والنحاس ، ومواردها فى الحديد لا تكفيها ، وفرنسا خالية تماماً من البترول ، وإيطاليا اليوابان فقيرتان فى المعادن والوقود ، وبريطانيا قليلة المواد الغذائية والبترول ، والولايات المتحدة وروسيا أوفر الدول غلات ، ولكنها فقيرة فى المطاط وفى غلات المناطق الحارة . غير أن هذه الدول كلها تشتمل على موارد اقتصادية عظيمة ، برغم افتقارها إلى بعض الغلات .

أما الأمر الثانى العظيم الخطر فى الإنتاج فهو مقدرة الشعب على استغلال هذه الموارد ، وعلى تنظيم الصناعة تنظيما يضمن أكبر وأوفر إنتاج ممكن ، ويكفل للأمة اتساعاً واسعاً فى تجارتها العالمية ، وازدياد ثروتها تبعاً لذلك .

ولعل هذا المقياس ، أعنى التفوق فى الميدان الاقتصادى ، هو المقياس الذى اتبعه الناس — عن عمد أو غير عمد — فى تقديم الدول بعضها على بعض ، لأنه يعبر عن أمرين هما الركنان الخطيران فى كيان كل دولة : وهما غنى الأرض ومواردها من جهة ، وكفاية الشعب ومقدرته

على استغلال تلك الموارد من جهة أخرى ..

وهكذا أوصلنا البحث والتنقيب إلى المقياس الذى تقاس به أقدار الدول ، وإلى تفسير لعله قريب من الصواب ، لتلك الظاهرة السياسية الكبرى فى العالم ، وهى انقسام الدول إلى دول كبيرة ، ودول غير كبيرة ، وقد يجوز لنا — والحال كما وصفنا — أن نقترح مقياساً حسابياً لتفوق الدول على النحو الذى نتبعه فى ترتيب التلاميذ درجات فى جداول الامتحان — ومن الممكن أن يكون هذا المقياس على النحو الآتى :

إن كل دولة تتألف من ثلاثة عناصر :

(١) مساحة من الأرض .

(٢) عدد من الناس .

(٣) ما يعمله الناس فى تلك الأرض . وإنى أقترح أن تمنح الدرجات بحيث يكون للأرض (أعنى مساحتها وخصوبتها ومعادنها إلخ) ٢٥ درجة — وللسكان (عددهم واستعدادهم وثقافتهم إلخ) ٢٥ درجة — ولنشاط السكان وحسن استغلالهم لأرضهم ٥٠ درجة . ولا شك أنه فى وسع القارئ اللبيب أن يمنح كلا من الدول الكبرى درجات على هذه الصورة — ثم يرتبها بحسب تقدير الدرجات إلى برنجى وإيكنجى وهلم جرا .

وبعد فإن هذه الحرب العالمية الثانية قد بدلت من أوضاع الدول الكبرى وغيرت ، وحذفت من عداد هذه الدول ثلاثاً سحقتها الحرب سحقاً ومحقتها محقاً ، ألا وهى اليابان وألمانيا وإيطاليا. ومع أن المسرح الدولى هو سطح الأرض الذى لم يتغير كثيراً ، فإن ثلاثة من كبار الممثلين

قد انتزعت عنهم الأدوار الفخمة الضخمة التى كانوا « يلعبونها » ، وقيل لهم إنكم منذ اليوم ستلزمون لعب الأدوار الثانوية ، ولن يكون لكم فى المسرح سوى مكان تافه ضئيل .

وهكذا خرج ثلاثة — ولو موقتاً — من أكابر اللاعبين وبقى أربعة . ولكن ليس هذا كل ما طرأ على المسرح من التبديل والتحوير ، والتربيع والتدوير . بل إننا رأينا فى الحقيقة مسرحاً جديداً له مظاهر تبعث على إمعان التفكير وإنعام النظر . فقد أصبحنا يقال لنا أحياناً إن كبار الممثلين خمسة ، وطوراً يقال لنا إنهم ثلاثة . فيقال اجتمع الثلاثة الكبار تارة ، واجتمع الخمسة الأقطاب تارة أخرى . فأما الثلاثة الكبار فهم أمريكا وبريطانيا وروسيا (على الترتيب الأبجدى) وأما إذا كانوا خمسة فإن هذا يكون بإضافة كل من فرنسا والصين .

وهنالك أدلة كثيرة تثبت أن هذه الفوضى قد حيرت كثيراً من العقول وأشاعت بين الناس العجب والذهول . وأخذ الناس يتساءلون ما بال هؤلاء الكبراء يكونون خمسة اليوم ، ثم يصبحون ثلاثة غداً ؟

لقد اعترف ميثاق الأمم المتحدة بمبدأ الكبراء الخمسة ، وجعل لهم مكانهم الدائم فى مجلس الأمن كما كان للكبراء السبعة مكان دائم فى مجلس العصبة . والميثاق هو دستور الأمم الجديد ، ونبراسها الذى يضىء لها السبيل إلى مستقبل باهر يحف به الأمن والرخاء والعدل والارتقاء . فلماذا إذن كل هذا التخليط والاضطراب ؟ ولماذا يكون الكبراء أحياناً خمسة وأحياناً ثلاثة ، مع أن هذا الاضطراب لم يكن له وجود قبل هذه

الحرب يوم كان عدد الكبراء سبعة باعتراف الجميع وبإقرار الخلق طرًّا ؟

إن السبب فى هذا أن مسرح السياسة قبل الحرب كانت تمثل فيه رواية واحدة. أما اليوم فإن على المسرح الدولى روايتين تتعاقبان فى التمثيل : الأولى رواية عظيمة الخطر وليس فيها من كبار الأبطال إلا ثلاثة ، والثانية أقل خطراً، وقد سمح فيها بأن يكون كبار الممثلين خمسة . فإذا ذكرت هذا أيها القارئ أدركت الفرق بين الحالين ، ووضح الصبح لذى العينين .

ولقد تجرأ أحد الساسة الإنجليز — وهو الأستاذ هارولد لاسكى — فوصف بريطانيا بأنها اليوم دولة فى المرتبة الثانية ؛ فلامه الناس جميعاً ، لأن مثل هذا الأمر لا ينبغى أن يقال ، مع أننا لو أعطيناها درجات فى المواد السابقة التى ذكرتها من قبل لما كان من الصعب أن تنجح وإن لم يكن ترتيبها متقدماً . . .

كذلك همس بعض الناس بأن حشر الصين فى زمرة الدول الكبيرة أمر أقل ما يقال فيه أنه سابق لأوانه . وذلك على الرغم من أن الصين أمة عريقة فى الحضارة والمدنية وقد اضطلعت فى هذه الحرب بعبء ثقيل وتستحق كل تقدير وتبجيل ، وفوق ذلك فإن النهضة الصينية الحاضرة قد جعلت من الصين دولة من الدرجة الأولى بلا مراء . وإن لم يعترف بذلك خصومها .

وهذا الاضطراب فى أقوال الكتاب ورجال السياسة ، ما هو إلا صورة لحالة الاضطراب السائدة فى وقتنا هذا . ولذلك نرى السياسة

لاتعرف لنفسها خطة ثابتةومنهجاً واضحاً فى التقدير والتمييز . وهذا بعض ما أعقبته هذه الحرب الضروس من اختلال القيم واضطراب الموازين، فبات من الصعب علينا اليوم أن نقطع برأى فيما آلت إليه الحال فى المسرح الدولى وفى أقدار الممثلين فيه، ولا بد من الانتظار قليلا حتى تستقر شئون هذا الكوكب المعذب ويثوب الرشد إلى عقول قادته وأولى الأمر فيه .

وبعد فإن دول العالم ، إلى جانب تقسيمها إلى كبير وصغير ، تنقسم أيضاً إلى دول تملك المستعمرات ،وأخرى لم تُرِد أو لم يُرَد لها أن تكون من ذوات المستعمرات . وليست الدول الكبيرة دائماً من النوع لأول كما أن الدول الصغيرة ليست كلها من النوع الثانى .

فقد كانت ألمانيا قبل الحرب من الدول الكبيرة ـــ وقد حرم عليها حيازة المستعمرات ـــ وكان يحز فى نفس الساسة من النازيين أن تكون دولة صغيرة مثل البرتغال ذات مستعمرات واسعة مترامية الأطراف .

وسنحاول فى الفصول التالية دراسة ظاهرة الاستعمار فى بعض مظاهره فى مختلف الأقطار .

٢

الاستعمار قديمًا وحديثًا

لعل الحركة الاستعمارية الحديثة التى أثرت فى النظام السياسى للعالم الذى نعيش فيه اليوم أبلغ التأثير ، هى أحق الظاهرات السياسية بأن ننعم فيها النظر ، وأن ندرسها دراسة عميقة . فليس فى ميدان السياسة العالمية اليوم حقيقة أظهر أو أبرز من ظاهرة الاستعمار ، التى باتت من نتائجها أن قسمت الأرض إلى ثلاثة أقسام : بلاد مالكة — وبلاد مملوكة — وبلاد « مستقلة » ليست بمالكة ولا مملوكة ، وربما أضيف إليها نوع رابع ليس بمالك ولا مملوك ولكنه فى حالة وسط وهو على الأرجح من الأمثلة القليلة التى يمكن أن يقال فيها : « شر الأمور الوسط » .

معنى الاستعمار

وجدير بنا — ونحن فى سبيل دراسة هذه الظاهرة دراسة دقيقة — أن نبدأ بتعريفها وتحديد معناها . ولقد يخطر لأحدنا أن يبدأ دراسته لمعنى الاستعمار بمراجعة المعاجم أو كتب اللغة أو دوائر المعارف . ولكن الباحث فى هذه الأسفار لن يؤوب حتى بخفى حنين . فإن فى لسان العرب مثلا عشر صفحات فى مادة « عمر » ، ولم يرد فيها ذكر لكلمة

الاستعمار ، ودائرة المعارف البريطانية خالية من مادة «إمبريالزم» كمادة مستقلة ، ومن أية مادة أخرى فى هذا المعنى . وقد اشتقت الكلمة العربية فى شيء من التفاؤل من مادة « العمر » و « العمران » . ولم يدر بخلد الواضعين لهذه الكلمة أن هذا العمران المزعوم سيجر إلى شر أنواع التخريب والتدمير .

وبديهى أن من العبث أن نرجع إلى أسفار اللغة فى تعريف معنى الاستعمار لأن هذا لفظ اصطلاحى بحت ، وإن لم يكن من الألفاظ التى أصبح معناها مقرراً محدداً لدى جميع الكتاب . وقد استخدم هذا اللفظ بعض الكتاب فى معنى يختلف عما أراده الآخر ، وعلى سبيل المثال أسوق هنا مثلا مقتبساً من أحد الكتاب المتعصبين للاستعمار والمستعمرين ، ولابد لى أن أورد هذا النص باللغة الأصلية لفائدة الذين يعرفون الإنجليزية من القراء ، قبل أن أحاول ترجمته للعربية :

"Imperialism is Nationalism transfigured by a light from the aspirations of universal humanity".

ومن الممكن أن نحاول ترجمته إلى العربية فيما يلى :

« الحركة الاستعمارية هى الحركة الوطنية تحولت صورتها بتأثير ضياء من أمانى البشرية العالمية . . . »

وعلى الرغم من أن هذه العبارة ليست واضحة المعنى تماماً فإن من الممكن أن يستخلص منها القارئ بعض المعانى التى تدور بخلد فلاسفة الاستعمار الذين أخذوا على عاتقهم تفسير مظاهره وتبرير سياسته أمام الناس .

وإذا أراد القارئ أن يطالع إشارة أخرى إلى الاستعمار من كاتب فرنسى لبق رشيق فإنى أسوق إليه العبارة الآتية المقتبسة من كتاب منتسكيو المشهور « روح القوانين » :

"Si j'avais à soutenir le droit que nous avons eu de rendre les nègres esclaves, voici ce que je dirais :

Les peuples d'Europe ayant exterminé ceux de l'Amérique, ils ont dû mettre en esclavage ceux de l'Afrique, pour s'en servir a défricher tant de terres.

... Ceux dont il s'agit sont noirs depuis les pieds jusqu'à la tête; et ils ont le nez si écrasé qu'il est presque impossible de les plaindre.

On ne peut se mettre dans l'idée que Dieu, qui est un être très sage, ait mis une âme, surtout une âme bonne, dans un corps tout noir".

De l'Esprit des lois, Livre XV, Chap. V.

« إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيداً ، فإنى أقول : إن شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تر بدًّا من أن تستعبد شعوب أفريقية لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة . والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ، وأنفها أفطس فطساً شنيعاً ، بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن ترثىَ لها . ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى — وهو ذو الحكمة السامية — قد وضع روحاً — وعلى الأخص روحاً طيبة — فى داخل جسم حالك السواد . . . »

وفى وسعنا أن نذكر أمثلة أخرى لتعريف الاستعمار . ولكن القارئ سيجد هذه الأمثلة مختلفة اختلاف نزعات الكتاب ، وميلهم إلى تمجيده وتعظيمه ، أو للسخرية منه . وهى لذلك قليلة الفائدة من الوجهة العلمية الخالصة . ومن المفيد ألا نمر بعبارة منتسكيو هذه دون أن نشير إلى أنها ليست مبنية على مجرد السخرية — فإن الإشارة إلى أن الشعوب السوداء أو الحمراء لا روح لها قد كانت مظهراً من مظاهر الاستعمار الأوربى الحديث فى أوائل عهده . ورجال الدين أنفسهم لم يتورعوا عن مثل هذه النزعات . وقد كان قادة الدين فى مراحل الاستعمار الأولى بأمريكا الشمالية ، يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان ، وكانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل . وكان من هذه الوسائل أن تنشر بينهم الأمراض الجديدة التى ليس للأمريكيين الأصليين تلك المناعة منها التى اكتسبتها شعوب العالم القديم . ومن أهمها مرض الحصبة — فكانوا يوصون بأن يمكن الأمريكيون الهنود من الاستيلاء على الأغطية (البطاطين) التى كان يتغطى بها المصابون بالحصبة . وكانوا يرون أن هذا الإجراء مما يتفق تماماً مع الدين .

وصفوة القول أننا فى حاجة لأن نعرّف لفظ الاستعمار تعريفاً سهلا واضحاً ، تيسيراً لدراستنا هذه ، فالاستعمار المقصود هنا هو « العمل ، أو مجموعة الأعمال ، التى من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة ، أو جماعة منظمة من الناس ؛ على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم . أو على سكان تلك الأرض ؛ أو على الأرض والسكان

فى آن واحد » . وهذا التعريف كاف فيما يخيل لى لأن يشمل جميع أنواع الاستعمار ؛ قديمه وحديثه . وهو تعريف طويل ولكن ليس من السهل أن نأتى بتعريف واضح وموجز لظاهرة بعيدة عن البساطة والسهولة . ولابد لنا ــ لكى نظهر ما اشتمل عليه هذا التعريف من المعانى ــ أن نتبعه بعض ملاحظات تفسره وتبرز منه بعض النواحى التى لا تبدو واضحة لأول وهلة وضوحاً كافياً :

١ ــ فالأعمال المشار إليها قد يكون منها استخدام القوة الحربية . وهذا هو ما يحدث غالباً . وقد تحدث السيطرة على أرض بشرائها . كما اشترت الولايات المتحدة ألسكا من روسيا . أو تحدث بمزيج من استخدام القوة والشراء . كما اشتريت جزر الفلبين من أسبانيا : وقد تحدث السيطرة برضا الدولة المختصة ، كما حصلت بريطانيا على جزيرة قبرص من الدولة العثمانية فى مقابل خدمات خاصة .

٢ ــ وعبارة السيطرة أو بسط النفوذ ، تفيد أنه ليس من الضرورى أن يكون الاستعمار سافراً بحيث تتسلط الدولة على جميع مرافق البلاد ، بل يكفى أن يكون لها نفوذ سياسى تنفرد به دون سائر الدول وتقيد به حرية البلاد التى يبسط عليها ذلك النفوذ . وعلى سبيل المثال نذكر أن إيطاليا كان لها نفوذ سياسى على ألبانيا لغاية شهر أبريل سنة ١٩٣٩ ثم تسلطت عليها بعد ذلك تسلطاً تامًّا ، فانقلبت الحال من استعمار خفيف إلى استعمار ثقيل .

٣ ــ والنص على الدولة أو جماعة منظمة من الناس ، أريد به أن

يشمل الاستعمار تلك الشركات التى تألفت فى العصور الحديثة مثل شركة الهند الشرقية ، وشركة أفريقية الشرقية ، وقامت بأعمال استعمارية عنيفة ، وتسلطت على مرافق البلاد دون أن يكون للدولة شأن فى ذلك سوى الإذن بتأليف شركة .

٤ ــ والإشارة إلى أن التسلط قد يقع على الأرض فقط ، فهذا هو ما يحدث فى بلاد خالية من السكان أو فى حكم الخالية من السكان ــ والمستعمرات اليونانية القديمة خير مثال لهذا النوع . ومن الأمثلة الحديثة استيلاء البريطانيين على جزيرة سانت هيلانة مثلا . وربما أمكننا بشىء من التجاوز أن نعد استيلاء الأوربيين على أمريكا الشمالية من هذا النوع ، على الرغم من وجود عدد قليل نسبيًّا من السكان الأصليين .

أما أن السيطرة قد تقع على السكان دون الأرض ، فذلك يكون بترك الأرض ومرافقها لسكانها الأصليين فلا تغتصب منهم ولا يكلفون الجلاء عنها . ولإيضاح هذه الناحية نذكر مثالا هو شرق أفريقية (مستعمرة كينيا مثلا) حيث يتسلط المستعمرون على الأرض والسكان . وأما غرب أفريقية ، فقد سمح للسكان الأصليين بالاحتفاظ بأرضهم . والسبب فى ذلك أن أرض شرق أفريقية المرتفعة تصلح لسكنى الأوربيين ، وأرض أفريقية الغربية منخفضة شديدة الحرارة لا تلائم سكنى المستعمرين .

٥ ــ وقد يبدو للقارئ أن يتساءل : هل يدخل فى هذا التعريف النفوذ الاقتصادى أو الثقافى ؟ وهل من الاستعمار مثلا أن تنشئ دولة أو رعاياها المعاهد العلمية أو ينشئوا شركات اقتصادية ؟ وهذا أمر قد

تختلف فيه الآراء . وقد تبلغ النعرة الوطنية ببعض الناس حد التطرف ، فيتوهمون أن قيام رعايا من بلجيكا مثلا بإنشاء شركة الترام أو شركة هليوبوليس ، أو دخول رأس المال الأجنبي فى أية صورة من الصور هو ضرب من الاستعمار حتى لو أدى إلى استخدام آلاف من الأيدى العاملة الوطنية . والصواب فى هذا وفى أمثاله أن المشروعات الثقافية والاقتصادية ليست من الاستعمار فى شيء ، ما لم تكن سبباً أو نتيجة لنفوذ سياسى . وقد استخدم رأس المال الأجنبى فى إنشاء السكك الحديدية فى الولايات المتحدة وفى غيرها من الأقطار الأمريكية ، ومع ذلك لم يترتب عليه أى نفوذ سياسى ، كما أنه لم يكن نتيجة لأى تسلط سياسى أجنبى ، وفرنسا كثيراً ما تنشئ المعاهد الثقافية فى بعض البلاد الأمريكية دون أن يكون لهذا أى مظهر من مظاهر الاستعمار . أما إذا أرادت فرنسا أن تجعل من وجود بعثات علمية أو دينية ذريعة تتذرع بها لبسط سلطانها السياسى فى قطر من الأقطار أو لاحتلاله احتلالا عسكريًّا ، فهذا بالطبع عمل استعمارى ، ومثله كمثل الخير الذى يراد به شر . فالبعثات العلمية والمشروعات الاقتصادية ليست فى ذاتها عملا استعماريًّا ولكن التدخل فى شئون القطر والتسلط على حكومته هو العمل الاستعمارى . ومن الواجب أن نفرق بين ظاهرة الاستعمار وبين الذرائع التى تتذرع بها للقيام بعمل استعمارى . وسيرى القارئ فيما يلى أن دول الاستعمار لن تعوزها الذرائع للقيام بأعمالها الاستعمارية ، بل أنها كثيراً ما تخلق هذه الذرائع وتوجدها من العدم .

الاستعمار القديم والحديث :

من الواضح أن الاستعمار فى حدود التعريف. الذى شرحناه ليس بالشيء الجديد . وسواء أكان الغرض من الاستعمار احتلال أقطار جديدة خالية أو شبه خالية من السكان أم كان الغرض منه توسيع رقعة الدولة بالاستيلاء على أقطار عامرة بالسكان، فإننا نجد أمثلة لهذين النوعين فى العهود البشرية القديمة . فقد أسس الفينيقيون مستعمرات مختلفة فى البحر الأبيض المتوسط ، وأنشأ اليونان القدماء مستعمرات عدة فى سواحل الأناضول والبحر الأسود ومضيق البسفور وفى صقلية وعلى سواحل فرنسا وأسبانيا ،وهى تشبه فى كثير من الوجوه استعمار البريطانيين لأمريكا الشمالية (الولايات المتحدة وكندا) ولأستراليا وزيلندة الجديدة .

وقد شهد العالم القديم ، كما ذكرنا من قبل ، إنشاء دول ضخمة مثل إمبراطورية بابل وإيران وآشور ، ومثل الدولة الرومانية العظيمة . وفى العصور الوسطى قامت الدولة العربية واتسعت رقعتها حتى شملت شطراً كبيراً من العالم القديم . كما أنشأ المغول دولا عدة فى شرق آسيا وغربها ـ بل لقد بلغ نفوذهم قلب القارة الأوربية نفسها .

غير أن هنالك فروقاً جوهرية بين الاستعمار القديم والحديث . وسنرى فيما يلى أن الطراز القديم ليس مقصوراً على العصور التاريخية القديمة والوسطى ــ بل إن هذا الطراز ينطبق أيضاً فى العصور الحديثة

على الدولة الضخمة القصيرة العمر التى أسسها نابليون بونابرت . وسنحاول فيما يلى إظهار تلك الفروق الأساسية بين الطرازين القديم والحديث :

١ ـــ لم يكن الاستعمار فى العهود القديمة عملا تقوم به الدول ذات الحضارة المتقدمة وحدها ، بل كثيراً ما كان المستعمرون قبائل أو جماعات أقرب إلى الوحشية ، ولكن لهم من القوة الحربية والنظام ما مكنهم من السيطرة على أقاليم سكانها ذوو حضارة ممتازة . أما الدول الاستعمارية اليوم فإنها بوجه عام دول قد ضربت فى الحضارة بسهم . وقد وجهت أعمالها الاستعمارية نحو بلاد فى حالة ضعف سياسى أو تأخر اقتصادى وثقافى . وليس فى العالم اليوم شعوب وحشية يخشى من غاراتها الاستعمارية كما حدث من إغارات المغول على دولة الصين والدولة الرومانية وعلى الدولة العربية . والعدوان الاستعمارى اليوم عمل انفردت به الأقطار المتمدينة التى بلغت الشأو الأعلى فى التطور السياسى والمالى والحربى .

٢ ـــ إن التوسع الاستعمارى الحديث قد شمل العالم كله ، ولم تعد المسافات الشاسعة ولا المحيطات الواسعة عائقاً يحول دون امتداد مخالب الاستعمار إلى قلب القارات وإلى الأقطار الواقعة وراء البحار . ولم يبق ركن من سطح الأرض فى مأمن من أن تناله يد الاستعمار . والفضل فى هذا يرجع إلى الكشف عن جميع الأقطار المجهولة وإلى سهولة الانتقال وسرعته بواسطة المخترعات الحديثة .

٣ ـــ هذا وقد ترتب على هذا التوسع فى الميدان الاستعمارى أن أضبحت الدول أو الإمبراطوريات الحديثة عبارة عن أقطار مبعثرة فى

أركان الأرض ، لا كتلة مندمجة ، كما كانت الدول القديمة ، فأصبحنا نرى أن دولة مثل البرتغال تسيطر على مساحات واسعة فى إفريقية الشرقية والغربية وعلى مساحات أقل منها فى الهند وفى جزر الهند الشرقية . ومثل هذا يقال عن هولندة ، التى كانت تسيطر على مساحات عظيمة فى آسيا وأمريكا . وهذه الظاهرة أكثر وضوحاً بالطبع فى الدول الاستعمارية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا .

أما الإمبراطوريات القديمة فكانت تسيطر على مساحة كبيرة من سطح الأرض ولكنها تشتمل على أجزاء متجاورة متلاصقة . والدولة الرومانية نفسها على الرغم من اشتمالها على أقاليم موزعة فى ثلاث قارات فإنها كانت كلها مركزة حول البحر الأبيض المتوسط . والدولة الوحيدة فى عصرنا هذا التى تشبه الإمبراطوريات القديمة هى الدولة الروسية التى كان انتشارها دائماً بواسطة التوسع البرى .

٤ — ويلحق بهذه الظاهرة (تقارب وتجاور الأقطار) أن العناصر الجنسية التى كانت تتألف منها الدول القديمة كانت أكثر تجانساً وتشابهاً . ولذلك أمكن على مدى الزمن أن يحدث بينها نوع من الاتحاد والاندماج. فالدولة الرومانية على الرغم من اشتمالها على عناصر من الأسبان والجول (أجداد الفرنسيين) واليونان والعرب والبربر ، فإنها كانت أكثر انسجاماً فى تكوينها من أية دولة استعمارية نعرفها اليوم . وهذه الشعوب كلها فى نظر عالم الأجناس تنتمى إلى سلالات بشرية ليس بينها اختلاف كبير . أما الإمبراطورية الحديثة فإنها تشتمل على جميع الأجناس

والألوان فى جميع مراتب الحضارة المختلفة .

٥ — ولعل أهم الفروق بين الاستعمار القديم والحديث ، هو أن التوسع القديم كان من عمل الحاكم الأعلى للدولة ، سواء أكان ملكاً أم سلطاناً أم عاهلا أمقيصراً ، وذلك من أجل زيادة مملكته ورعيته وتوسيع نطاق دولته ، فيعاو بذلك شأنه وشأن أسرته وشأن الطبقة الحاكمة التى تؤازره وتؤيده .

وكانت الشعوب التى تدخل تحت حكم العاهل الجديد تنضم بهذه الطريقة إلى مجموعة شعوب الإمبراطورية ، وتشاطرها حظها من الشقاء أو السعادة والنظام أو الفوضى ، فتغتبط إذا كان الحكم صالحاً ، وتتألم من مفاسده وشروره . ولم تكن هنالك تلك الروح القومية التى تجعل الناس يحسون أنهم تابعون لسلطان أجنبى .

فالدولة الرومانية أسستها روما ، ولكنها لم تلبث أن اشترك فى أعمالها شعوب كثيرة غير سكان روما وإيطاليا . ولقد تولى حكم الدولة الرومانية قياصرة من أصل أسبانى فى بعض العهود — بل تولى المنصب مرة أحد العرب ، دون أن يبدو للناس أن فى هذا الإجراء شذوذاً .

وكذلك الدولة العربية قد بسطت سلطانها على المشرق والمغرب . فكان للعرب فى بداية عهدها بعض المزايا على سائر الشعوب ، ولكن لم تلبث سائر العناصر أن اشتركت فى الحكم ، وفى نشر الثقافة العربية ، وفى نواحى النشاط المختلفة .

أما الاستعمار الحديث فإنه ليس من صنع ملك يريد أن يستكثر

من الرعية ، بل الاستعمار اليوم من عمل الشعوب نفسها ، فصاحب الشأن هو الشعب البريطانى أو الشعب الفرنسى أو الشعب الهولندى ، ولذلك كثيراً ما نسمع الواحد من أبناء تلك الشعوب يتحدث عن مستعمراته وممتلكاته فى شىء من الزهو والخيلاء .

٦ — ومن الظاهرات الغريبة فى الاستعمار الحديث أنه ليس من الضرورى أن تقوم به الدولة نفسها بل كثيراً ما تولى الأفراد فى صورة شركة بجميع أعمال الاستعمار كما ذكرنا من قبل ، فهم يعدون البعثات العسكرية والسفن لأواساحة اللازمة . ومع أن الغرض الأسمى لتأليف الشركة هو التجارة فإن أعمالها لا تقتصر على التجارة بل تتناول الفتح والغزو والحكم وانتزاع الأراضى من سكانها وتوزيعها على الجنود والأنصار وجباية الضرائب والفصل فى القضايا ، أى أن الشركة كانت دولة حاكمة مستعمرة بكل معانى الحكم وكل مظاهر الاستعمار .

وقد تناول الاستعمار بواسطة الشركات أقطاراً عظيمة الأهمية فى القرن السابع عشر ، منها الهند ، وجنوب أفريقية وجزر الهند الشرقية . وفى القرن التاسع عشر ألفت شركات عدة لاستعمار القارة الأفريقية ، وقد تم فعلا تسلط جماعات أوربية على مساحات واسعة من تلك القارة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . ونضرب على سبيل المثال الشركة التى ألفها سسل رودس ، واستولى على مساحة تزيد على مائة ألف كيلومتر مربع ، وشركة أفريقية الشرقية البريطانية ، التى لها « الفضل » فى الاستيلاء على شرق أفريقية وأوغندة . وحتى الملك ليوبولد نفسه لم يرد

أن تتولى بلجيكا استعمار الكنجو ، بل أنشأ لذلك هيئة مستقلة سماها « الاتحاد الدولى للاستكشاف ونشر الحضارة فى الكنجو » .

"Alliance Internationale pour l'exploration et la civilisation du Congo".

كان قيام الشركات بهذه المشاريع الاستعمارية بدلا من أن تضطلع بها الدولة نفسها ، عملا ملائماً للحكومات كل الملاءمة . فقد استطاعت أن تترك الأفراد يرتكبون ما يشاءون من الفظائع من أجل الفتح والاستيلاء ، ومهما اقترفوا من الإثم والوحشية ، فهم على كل حال أشخاص غير مسئولين . وتستطيع الحكومة فى النهاية أن تقضى بحل الشركة — بعد تمام الفتح والاستيلاء على المستعمرة — وتتولى إدارتها بنفسها بعد أن تمنح الشركة تعويضاً كريماً فى مقابل ما أنفقت من الجهد والمال . وهكذا تجىء الدولة فى صورة المنقذ المخلص للشعب الأفريقى من مخالب الشركة التى سمحت هى بإنشائها ، وبذلت لها غير قليل من المعونة والإرشاد .

وهكذا نرى أن من أهم ما تمتاز به الحركة الاستعمارية الجديدة أن الدولة لاتنهض بأعمال الاستعمار وحدها ، بل قد يسبقها أو يشاركها أفراد من الرعية . والنظام الديمقراطى يجعل الشعب هو المرجع الأول فى سياسة الدولة ، ولذلك لا بد للدول أن تحصل على تأييد شعبها فى سياستها الاستعمارية ، ولا بد لها من تربية العقلية الاستعمارية لدى جميع أفراد الشعب بقدر الإمكان .

أسباب الاستعمار :

من أهم مزايا الاستعمار الحديث أن له كتاباً وفلاسفة يدافعون عنه ويشرحون أغراضه ومراميه . أما الغزاة الفاتحون من القدماء فقلما رأوا ما يدعو لتبرير سياستهم وشرح الأسباب التى تدعوهم إلى التوسع والتسلط على أقطار جديدة ، اللهم إلا إذا استثنينا أحوالا قليلة كان فيها بعض الالتجاء إلى ذكر مبررات للغزو ، مثل الحروب الصليبية والدينية . أما فيما عدا ذلك فقد كان العاهل العظيم يرى من حقه أن يغزو ويستولى ، استجابة لباعث لا حاجة به إلى تفسيره أو تبريره ، أما دعاة الاستعمار اليوم فلهم مذاهب وأقوال كثيرة :

١ — من الجائز أننا إذا فتشنا ضمائر الاستعماريين اليوم ، لم نجد أسباباً أو دوافع حقيقية تدعوهم إلى انتهاج الخطط الاستعمارية ، وإنما هو مجرد غريزة الاستيلاء وشهوة السيطرة تحرك الدول اليوم كما كانت تحرك القدماء ؛ وهناك عدد من الكتّاب قد ذكروا مبررات للاستعمار لا تختلف كثيراً عما يذكره عاهل قديم مثل جنكيزخان — لو أنه أتيح له أن يفسر أو يبرر سياسته الاستعمارية . فيقول اللورد كرزن مثلا : « إن الهند هى محور عظمتنا ومقياس مجدنا أو إخفاقنا . ولئن فقدنا الهند ليكونن هذا إيذاناً بغروب شمسنا » . ويقول الكاتب الفرنسى لروابوليو : إن فرنسا لا بد لها من أن تكون دولة أفريقية عظيمة ، وإلا فسرعان ما تغدو دولة أوربية من الدرجة الثانية . ولن يكون لها فى العالم شأن أعظم

كثيراً مما لدولة مثل اليونان ورومانيا .

فأصحاب هذا المذهب يرون أن الدولة لن يكون لها شأن أو خطر إلا بالتوسع والاستعمار . ومثل هذا المذهب هو الذى اعتنقه النازيون بعد ذلك وابتكروا له كلمة جديدة فقالوا إن شعبهم لا بد له من شيء اسمه Lebensraum أى مجال حيوى يشتمل على بلاده وبلاد غيره . وذهب الغلاة منهم إلى أن هذا المجال الحيوى ذو مرونة عظيمة بحيث يجوز أن يشمل العالم كله . « اليوم لنا ألمانيا وغداً العالم كله ! » .

٢ ــ المذهب الاستعمارى الثانى ــ وله بعض الارتباط بهذا المذهب الأول ــ ينادى بأن الدولة صاحبة الشأن لها « رسالة عالمية مقدسة » لا بد لها أن تنشرها وتبثها بين الشعوب ، ألا وهى رسالة المدنية والحضارة ، رسالة تقضى عليها بأن تبذل وتضحى لرفع مستوى الشعوب والأمم . وليس الفتح والغزو غاية بل وسيلة لإعلاء البشرية والسمو بها إلى آفاق العزة والكرامة والحرية .

وقد وصف أصحاب هذا المذهب تلك الرسالة التى تؤديها الشعوب الأوربية بأنها «عبء يحمله الجنس الأبيض» The White man's Burden ، وهو عبء ثقيل فادح ، ولكنه محبب إلى تلك النفوس الاستعمارية التى جعلت هدفها رفع شأن بنى الإنسان فى كل مكان !

ونحن الذين نشاهد أعمال الاستعماريين عن كثب قد نسخر من هذه الأقوال أو نراها ضرباً من الهذيان أو من النفاق ، ولكن هنالك من غير شك أشخاص يدلون بهذه الأقوال عن عقيدة وإيمان . ويتبعهم

عدد غير قليل من الناس-فى كل دولة استعمارية . وقد يكون عدد هؤلاء الناس كبيراً فى بعض البلاد صاحبة المستعمرات ، فتضطر إلى أن تلطف من حدة سياستها الاستعمارية .

٣ — بعد هذا الطراز الاستعمارى — الذى ينشد ما يتوهمه المثل الأعلى — يجىء طراز آخر من نوع لا شك أنه شرير ، وهو المذهب الذى ينادى بضرورة الاستيلاء على أقطار جديدة لسكنى رعاياه وإقامتهم ، مع أن فى تلك الأقطار سكانها الأصليين الذين استوطنوها منذ قرون عدة . إن الحكومات الاستعمارية التى من هذا الطراز تنادى بأن شعبها آخذ فى الازدياد ، وأنه لا بد له من أراض جديدة يعيش فيها ، وأن جميع اعتبارات العدل والإنسانية لا قيمة لها أمام هذه الحاجة الملحة فى نظرهم .

ومن الغريب أن كثيراً من البسطاء القليلى العلم والتفكير فى بلاد عديدة قد انخدعوا بهذه الدعاية وتوهموا أن مثل هذا التوسع أمر لا مفر منه ، وأن الدول التى تنشده لها العذر كله أو بعضه . وقد كثر التضليل فى هذا الموضوع حتى بات من الصعب على الناس أن يدركوا ما انطوت عليه تلك السياسة من الكذب والرياء .

وحينما نسمع الدعاة الفاشيين يتصايحون بأن الشعب الإيطالى لا بد له من المستعمرات لفسح المجال لسكانه المتزايدين — يتوهم بعضنا ، بل كثير منا ، أنهم على صواب فيما يزعمون . ولكى يظهر بهتان هذه الدعاية يجب علينا أن نذكر :

أولا ــ أن هنالك شعوباً أخرى قد ضاقت بها بلادها ، فوجدوا فى العالم الجديد ميداناً للمهاجرة والاستقرار ، ذلك ما فعله الشعب الإيرلندى والشعوب الإسكندناوية وشعوب البلقان وسوريا بل الشعب الإيطالى نفسه . فقد استطاعت الملايين من أبناء هذه الشعوب النزوح إلى القارة الأمريكية وغيرها حيث يعيشون اليوم فى الجمهوريات الجديدة ويعملون فيها كعنصر نافع من رعاياها .

ثانياً ــ أن الدعاية الفاشية قد اشتدت فى طلب المستعمرات فى الوقت الذى أخذ فيه نمو السكان يتناقص فى إيطاليا نفسها بدرجة واضحة ملموسة .

فليس طلب المستعمرات إذن نتيجة لازدحام السكان فى إيطاليا ، لأن الهجرة إلى أمريكا قد خففت من ذلك الازدحام تخفيفاً واضحاً . ولكن الذى تبغيه الحكومة الاستعمارية هو أن يهاجر رعاياها إلى أقطار تملكها وتسيطر عليها ، مع أنها قد لا تتسع إلا لعدد محدود جداً من المهاجرين ، كما حدث فعلا فى ليبيا وبلاد الحبشة وأرتريا . فإن العنصر الإيطالى المهاجر إلى مختلف المستعمرات الإفريقية تافه جداً إذا قورن بالجاليات الإيطالية الهائلة فى الولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين وغيرها من بلاد العالم الجديد .

فالمطالبة بمستعمرات للسكان المتزايدين لم تكن فى أى وقت من الأوقات سوى ضرب من النفاق السياسى وستار زائف للمطامع الاستعمارية التى تلتمس المبررات من أى نوع كانت .

٤ ـ الطراز الرابع من الاستعمار هو الذى نعرفه نحن سكان مصر خير المعرفة ـ لأننا قد اضطررنا لأن نسمع صوته يتردد من حين لحين ، ذلك هو الطراز الحربى أو الدفاعى . وأصحاب هذا المذهب يرون أنه لا بد لهم من التسلط على قطر أو عدد من الأقطار لضرورات عسكرية ، أو لأن الموقع الحربى لهذا الإقليم أو ذاك هو من الخطر ، بحيث لا بد لهم أن يضمنوا سلامته من كل عدوان .

وهذه الأقاليم ذات الأهمية العسكرية تنقسم إلى أنواع ، فمنها : الأقطار المتاخمة لحدود الدولة ، والتى ترى أنها لازمة للدفاع عن أرضها ، مثل التيرول الجنوبى ، الذى اقتطعته إيطاليا من بلاد النمسا لكى تحمى أرضها وتدافع عنها من الناحية الشمالية ، ومنها الجهات التى تعترض خطوط المواصلات الإمبراطورية ـ مثل جبل طارق ومالطة وقناة السويس وعدن وسنغافورة بالنسبة إلى الإنجليز ، وبنما بالنسبة للولايات المتحدة . فهذه الجهات كلها فى نظر الدول الاستعمارية لا بد من بسط النفوذ عليها لضمان سلامة المواصلات فى وقت الحرب . وعلى الرغم من أن هـــذه المواصلات قد تعطلت تماماً فى أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية فإن هؤلاء الاستعماريين لا يزالون متمسكين بهذه الحجة .

وأخيراً هنالك أقطار لا علاقة لها بطرق المواصلات ولكنها يخشى عليها إذا وقعت فى أيد معادية أن تهدد تلك المواصلات ، مثل جزيرة قبرص وبعض البلاد الواقعة على الخليج الفارسى . فهذه كلها بعيدة عن الطرق البحرية ، ولكن التسلط عليها « ضرورى » لكى لا تقع فى أيد معادية .

٥ ــ الطراز الخامس والأخير من الاستعمار هو الذى أطلق عليه اسم الاستعمار الاقتصادى ، أى طلب المستعمرات وحيازتها ، لكى تكون ميداناً لكسب المال وجمعه بمختلف الطرق بواسطة شركات رأسمالية ؛ وكثير من الكتاب يرى أن هذه الصبغة النفعية هى الغالبة على الحركة الاستعمارية الحديثة ، وأن رجال المال هم بوجه خاص الذين دفعوا الدول نحو التوسع الحديث ، وهم السبب الأول فى ذلك التسابق والتكالب على الاستعمار الذى شهدناه فى السبعين عاماً الماضية .

إن هؤلاء الرجال لهم بالطبع نفوذ كبير فى الدولة ، وهم لا يتورعون عن استخدام هذا النفوذ لجمع الثروة وجنى الأرباح الطائلة . والمشروعات التى يمارسونها إما تجارية ، أى أنهم يجعلون من المستعمرات ميداناً لتصريف البضائع والسلع ، أو زراعية بإنشاء مزارع واسعة لغلات الأقاليم الحارة مثل المطاط والقطن ، أو معدنية للبحث عن الثروة المعدنية واستغلالها .

هذه هى المذاهب الاستعمارية الرئيسية ــ التى حاول دعاة الاستعمار أن يعبروا عنها ويشرحوها ويدعوا لها ويدافعوا عنها .

تكاليف الاستعمار :

حاول الكاتب الشهير نورمان إنجل أن يثبت فى غير واحد من كتبه أن الاستعمار يكلف الدولة نفقات باهظة ولا تجنى من ورائه نفعاً يستحق الذكر ، وأن الشعب يمون الاستعمار بما يدفعه من الضرائب

وبما يفقده من أرواح أبنائه دون أن يكون للمستعمرات أقل أثر حقيقى فى تحسين حالة الشعب المادية والأدبية . وقد أورد أرقاماً عدة عما تتكلفه الدولة من الأساطيل الحربية ومن وسائل الدفاع المختلفة ، وأثبت أن ما تجنيه من ربح مستعمراتها لا يتكافأ مع تلك النفقات . وقد تبع نورمان إنجل كتاب كثيرون فى رأيه هذا . والراجح أن القائمين بحكم الدول الاستعمارية لا يحاولون أن يجعلوا من الاستعمار مشروعاً اقتصاديًّا يجب أن تفى إيراداته بنفقاته ، لأن هنالك مطامع استعمارية أخرى غير مجرد الربح المادى . وهذا هو ما يدعونا إلى أن نظن أن الاستعمار شهوة فى النفوس تدفع الحكومات إلى اتباع السياسة الاستعمارية سواء أكانت تلك السياسة مؤدية إلى مكسب أم خسارة مادية أو أدبية .

الاستعمار يفسد الحياة الدولية :

كان لبعض الدول فى الميدان الاستعمارى مزية السبق ، كما ذكرنا من قبل — لأنها دخلت الميدان قبل سواها — ومن أجل ذلك نرى دولة مثل البرتغال لها مستعمرات عظيمة . ونرى هولندة قد تملكت جزر الهند الشرقية كلها تقريباً ونرى بريطانيا قد استطاعت أن تتسلط على الهند وأقطار أخرى ، قبل أن يتم تكوين ألمانيا وإيطاليا . ثم جاءت الحركة الاستعمارية الحديثة فى القرن التاسع عشر ، فاستولت بريطانيا وفرنسا على نصيب الأسد من القارة الإفريقية ، ودخلت ألمانيا وإيطاليا الميدان

متأخرتين فلم تفوزا إلا بنصيب قليل نوعاً ما بالنسبة لألمانيا ونصيب تافه بالنسبة لإيطاليا .

واشتد التنافس الاستعمارى فى العصور الحديثة اشتداداً هائلا ، وأخذت الدول يكيد بعضها لبعض ، وتتنافس فى بناء الأساطيل واتخاذ الأهبة للحرب . ولئن حاول المؤرخون أن يجدوا أسباباً مختلفة للحرب العالمية الأولى والثانية ، فإن من المستحيل أن ننسى أن من أهم تلك الأسباب التنافس الشديد فى الميدان الاستعمارى وحرص كل دولة كبيرة على أن تنال ما تدعوه « نصيبها » من التوسع والتملك . فقد جعلت السياسة الاستعمارية شهوة التملك أمراً مألوفاً كأنه حق من الحقوق المقررة . واستباحت الدول الاستعمارية فى سبيل تحقيق شهوتها أن ترتكب الزور والإثم ، وتحنث بالأيمان وتخون العهود . حتى انحطت الأخلاق الدولية إلى الدرك الأسفل وسرى السم فى العلاقات الدولية . فلم تعد الدول تتورع عن ارتكاب العدوان وعن التفنن فى الكذب والرياء .

وصفوة القول أن التكالب على الاستعمار والمستعمرات ، إن لم يكن السبب المباشر فى الحربين ، فإنه على الأقل هو السبب فى إفساد العلاقات الدولية وفقدان الشعور الإنسانى ، وبذلك كان على الأقل سبباً غير مباشر فى هذه الحروب العالمية وفى النكبات الهائلة التى أنزلتها بجميع الشعوب .

وقد أخذت الدول الكبيرة صاحبة المستعمرات بعد ذلك تدافع عن قضيتها ، وتزعم أنها ليس لها مطامع استعمارية ولا تسعى وراء مغنم .

وعند ما انهزم الأعداء فى الحرب العالمية الأولى والثانية ، تاركين أرضاً وديارًا كانت فى حوزتهم ، رأت الدول المنتصرة ألا تضم تلك الأقطار والديار « ضما » على الطريقة الاستعمارية القديمة ، وقررت أن تجعل منها بلاداً تحت الانتداب فى المرة الأولى ، وتحت الوصاية فى المرة الثانية .

وسنحاول فى الفصل التالى أن نوضح الخصائص الرئيسية لهــذين النظامين .

٣

الانتداب والوصاية والاستعمار

انتهينا فى الفصل الماضى إلى أن الاستعمار قد أشاع الفوضى والفساد فى الشئون والعلاقات الدولية . فلم يكن فى ميدان التكالب الاستعمارى متسع لإطفاء جميع الشهوات وإرضاء جميع الرغبات ، وذلك لأن طائفة من الدول كانت لها ميزة السبق فى هذا الميدان . فبسطت نفوذها وفرضت سلطانها على كثير من الأقطار فى مختلف القارات والأقاليم تجعل منها « مستعمرات تاج » أو « حمايات » أو « مناطق نفوذ » أو « قواعد عسكرية » أو غير ذلك من الأسماء والنعوت التى اشتمل عليها قاموس الاستعمار الحديث . وأصبح لهذه الدول السابقة فى الميدان حقوق مكتسبة مقررة . ولم تترك للدول « اللاحقة » أو المتخلفة سوى لقيمات خشنة جافة لا غناء فيها للنفوس الشرهة ولا رىّ فيها للظمأ الاستعمارى الذى يحرق قلوب أصحابه .

كذلك أفسد الاستعمار الأخلاق السياسية وانحط بها إلى الدرك الأسفل من الكذب والرياء وإخلاف العهود والحنث بالأيمان والمواثيق ، حتى كانت دولة محترمة مبجلة مثل بريطانيا يطلق عليها الكتاب فى أوربا اسم ألبيون الخائن Perfide Albion . ومع أن بريطانيا قد اشتهرت بإتقان هذه السياسة والنبوغ فيها غير أننا رأينا هذه البذرة

الشريرة تنمو وتتكاثر على مدى الزمن ، حتى رأيناها تنضج فى أكمل صورة وأضخمها فى سياسة ألمانيا النازية التى جعلت من نقض المعاهدات فناً من الفنون أو علماً من العلوم ، وطبقت فيها هذا فى القارة الأوربية نفسها ، وهى الميدان الوحيد الذى تحامته السياسة الاستعمارية الحديثة ، فكأن الدول الاستعمارية العظيمة مثل فرنسا و بريطانيا أرادت أن تبتعد عن القارة الأوربية وأن تنأى بنشاطها الاستعمارى إلى « ما وراء البحار » لأن المسرح الأوربى واقع تحت سمع العالم وبصره ، وتتعرض فيه السياسة الاستعمارية للمؤاخذة الشديدة ، وفى الأقطار البعيدة عن أوربا ميدان أوسع ومجال أحب تجنباً للنقد واللوم . أما ألمانيا فلم تكن ممن يهمه مثل تلك الاعتبارات وقد أغلق باب التوسع وراء البحار . وهى على كل حال لم تفعل أكثر من أن اتبعت فى أواسط وشرق أوربا نفس الأساليب والخطط التى سارت عليها الدول الاستعمارية فى قارتى آسيا وأفريقية ، وكأنها أرادت أن تذهب فى التقليد إلى أبعد مدى ، فلم تحاول أن تبتكر أسماء أو مصطلحات جديدة ، بل أطلقت على بلاد تشيكوسلوفاكيا بعد ضمها فى مارس سنة ١٩٣٩ اسم « حماية » بوهيميا ومورافيا ، ولو منحت ألمانيا فسحة من الوقت لجعلت من بلاد المجر و يوجوسلافيا و رومانيا و بولندة ودانماركة حمايات أخرى . ولكن الدول التى تحرص على التوازن فى أوربا لم تطق صبراً على هذه الحال ، فنشأت الحرب العالمية الثانية التى أنزلت بالعالم أشد الويلات وأفظع الكوارث .

وهكذا نرى أنه ليس من الإسراف فى شىء ما ذهبنا إليه فى ختام

المقال السابق من أن سياسة الاستعمار لها الفضل الأكبر ، سواء أكانت السبب المباشر أم غير المباشر ، في قيام الحربين العالميتين الأولى والثانية — وما جرته على الشعوب من الويلات .

وكان من الطبيعي أن تعلن الدولة المعادية للمحور أنها تشهر حرباً « مقدسة » ، وأنها بعيدة كل البعد عن مظنة التوسع والتملك . وهذا التبرؤ نفسه اعتراف صريح بأن سياسة الاستعمار شيء ينبغي التنصل منه كأنه وصمة تأبى تلك الدول أن توصم بها ، وسبة لا تريد أن تلحق بها .

ولكن الحرب الحديثة تنتهي دائماً بهزيمة ساحقة لأحد الطرفين ويترك الفريق المهزوم أسلاباً ومخلفات لا بد من التصرف فيها . وكانت السنة القديمة تقضي بتوزيع الأسلاب واقتسام الغنائم بين الدول المنتصرة من غير أدنى تحرج أو تردد . غير أن الدعايات الإنسانية الجليلة التي قامت بها الدول المتحالفة في الحرب الأولى والأمم المتحدة في الحرب الثانية كانت قد ملأت البقاع والأصقاع وانتشرت في الشرق والغرب ، وبلغت من الشدة والحدة مبلغاً لم يجعل من الممكن للدولة الظافرة أن ترجع إلى سياسة الاستعمار السافر ، ولم يكن بد من أن تعدل عن الخطة القديمة وأن تنهج في التصرف في مخلفات الدول المهزومة نهجاً جديداً . ولذلك سنت مبدأ الانتداب في المرة الأولى ومبدأ الوصاية في المرة الثانيـــة ، وكان هذا المسلك الجديد اعترافاً ضمنيًّا بأن الاستعمار من الشرور التي لا بد من الابتعاد عنها ، أو هو على الأقل عورة من العورات التي تؤذي العيون ، فلابد من سترها وتغطيتها بغطاء جديد .

ومع ذلك فإن الدول المنتصرة بعد الحرب العالمية الأولى لم تسلك مسلكاً ينطبق على المنطق السليم . إذ لو كان الاستعمار فى نظرها شراً من الشرور ، لبادرت بتطبيق الانتداب على جميع المستعمرات والحمايات والممتلكات ، لكنها لم تفعل هذا ، ورأت أن السيطرة على الأراضى القديمة حق مكتسب لا معنى للتخلى عنه ، وأن المبدأ الجديد لن يطبق إلا على الأراضى التى زالت عنها سلطة العدو المهزوم .

وجدير بنا الآن أن ننظر إلى نظام الانتداب هذا وإلى تطبيقه ومظاهره المختلفة حتى نرى إلى أى مدى نستطيع أن نعده شيئاً جديداً فى السياسة الدولية يتمشى مع المبادئ الإنسانية التى تورط الحلفاء فى الدعاية لها ، أو أنه لم يكن سوى ثوب جديد تتخذ منه الشهوة الاستعمارية ستراً جديداً أو ستراً رديئاً . لقد كان بين المنادين بفكرة الانتداب والداعين لها جماعات وأفراد ممن يعطفون حقاً على الشعوب الضعيفة ، ويتمنون لها السعادة والرقى والرخاء ولكن هذه الجماعات لم تكن هى التى قامت بتنفيذ الانتداب وتحويل الفكرة الصالحة إلى سياسة صالحة ، بل قام بتنفيذ الانتداب نفس الدول التى لم يكن مسلكها الاستعمارى فوق النقد واللوم الشديد . ولذلك كان مما يسترعى الانتباه أن ننظر هل تستطيع تلك الأيدى التى لم تكن طاهرة أو نظيفة ، أن تنقلب فجأة إلى أداة كلها طهر ونبل وإخلاص ؟

تعريف الانتداب :

لم يتناول الانتداب جميع الأقطار التى سلخت من ألمانيا وتركيا والنمسا والمجر وبلغاريا ، فإن حدود الدول قد عدلت فى أوربا بإضافة مساحات من الأرض إلى فرنسا وإيطاليا ورومانيا ويوجوسلافيا وغيرها . واعتبرت هذه الإجراءات مجرد تعديل فى الحدود . فلم تعد إيطاليا منتدبة على إقليم ترنتينو ، ولا فرنسا منتدبة على الألزاس واللورين ، ولا رومانيا على ترانسلفانيا وهلم جرًّا ، بل أصبحت هذه الأراضى جزءاً متمماً للدول التى ضمت إليها وأصبح مبدأ الانتداب مقصوراً على الأراضى التى زال عنها حكم تركيا وألمانيا فى قارتى آسيا وأفريقية . أى أنه كان مقصوراً على القارات التى كانت تدخل عادة فى نطاق التوسع الاستعمارى وعلى الأقطار التى كانت مطمع أنظار الدول الاستعمارية .

عرف أحد أقطاب السياسة البريطانية مبدأ الانتداب بأنه

"A self-imposed limitation by the conquerors on the sovereignty which they obtained over conquered nations".

« هو عبارة عن حد — فرضة الفاتحون على أنفسهم — من حق السيادة التى أحرزوها على الأمم التى قهروها» .

هذا التعريف أدلى به اللورد بالفور فى اجتماع لمجلس إدارة عصبة الأمم فى شهر مايو سنة ١٩٢٢ وذلك بمناسبة الكلام على فلسطين . ومن المهم أن ننعم النظر فى هذا التعريف الذى يلقى شيئاً من الضوء على العقلية

الاستعمارية وأسلوبها فى التفكير . فنلاحظ فى هذا التعريف :

أولا — أنه يشير إلى الحد من حق السيادة — ولم يقل النزول عن تلك السيادة ، كأن الانتداب لا يحول دون الاحتفاظ ببعض الحقوق التى ترتبت على الفتح والانتصار على العدو .

ثانياً — وإشارته إلى أن هذا التحديد من السيادة أمر قد فرضه الفاتحون على أنفسهم — تنبىء من غير شك بأنهم أصحاب الشأن فى تحديد مدى هذا « التحديد » .

ثالثاً — أن وصفه للدول المتحالفة بأنها فاتحة غازية — وصف أقل ما يقال فيه أنه ينافى تلك الدعايات الإنسانية التى كثر التحدث بها فى الدول الغربية .

رابعاً — أغرب شىء فى هذا التعريف أنه يصف الانتصار على دولة تركيا مثلا — بأنه قهر للأمم العربية — مع أنه لولا مساعدة العرب لما أمكن غزو سوريا ولبنان وطرد الجيش التركى منها .

فهذا تعريف لمعنى الانتداب يفيدنا فى تفهم عقلية الساسة الذين تولوا تطبيق الانتداب ، ولكنه لا ينفعنا فى فهم المعنى الذى رمى إليه أولئك الأفراد الذين كان لهم الفضل الأول فى سن هذا المبدأ .

وربما كان أقرب إلى تعريف مبدأ الانتداب ما جاء فى أول المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم حيث نجد العبارة التالية تحت عنوان نظام الانتداب :

« المستعمرات والأقطار التى زالت عنها — بسبب الحرب — سيادة

الدول التي كانت تحكمها من قبل ، والتي يعيش فيها سكان لا يستطيعون أن يقفوا بأنفسهم في الظروف المجهدة القاسية للعالم الحديث ، يجب أن يطبق عليها المبدأ القاضي بأن رفاهية هؤلاء السكان وتقدمهم أمانة مقدسة في أعناق الدول المتمدنة ومن الواجب أن يتضمن هذا الميثاق الضمانات اللازمة لتأدية تلك الأمانة على الوجه الأكمل » .

هذا النص أدنى إلى ما كان يجول بخاطر الذين سنوا مبدأ الانتداب ، والفرق بين هذا التعريف وبين ما ذهب إليه اللورد بالفور هو الفرق بين عقلية واضعي نظام الانتداب وعقلية الساسة الذين قاموا على تنفيذ هذا النظام .

أنواع الانتداب :

وقد جعل الانتداب جزءاً لا ينفصل من نظام عصبة الأمم ، وهي الهيئة التي أنشئت للسهر على الأمن ولتنظيم علاقات الشعوب طبقاً لمبادئ العدل والتعاون ، وقد خصصت المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الأمم لبيان معنى الانتداب وأغراضه وأنواعه .

ونصت تلك المادة على أن يكون الانتداب من ثلاثة أنواع وذلك تبعاً لدرجة تقدم السكان في الوعي السياسي والنمو الاقتصادي والثقافي وغير ذلك من الاعتبارات البشرية والجغرافية .

فأما النوع الأول فيشمل تلك الأقطار التي كانت من قبل جزءاً من الدولة العثمانية . وقد بلغ سكانها منزلة من التقدم تجعل من الممكن

الاعتراف بهم كأمم مستقلة . وفى هذه الحالة يكون واجب الدولة التى تتولى الانتداب مقصوراً على بذل الإرشاد والمساعدة إلى أن تبلغ تلك الأمم مرتبة النضج السياسى الكامل وتتمتع بالاستقلال التام. ومن الواجب أن يستأنس برأى هذه الأمم فى اختيار الدولة التى تنتدب لإرشادها ومساعدتها .

أما انتداب الدرجة الثانية فيشمل المستعمرات الألمانية فى غرب وشرق إفريقية فى المنطقة الاستوائية وهذه الأقطار يجب أن تتولى الدولة المنتدبة إدارتها ، مع مراعاة مصلحة السكان ورفاهيتهم والعمل على تقدمهم من جميع الوجوه .

أما انتداب الدرجة الثالثة فيشمل أفريقية الجنوبية الغربية . وهى قطر نصف صحراوى قليل السكان متاخم لاتحاد إفريقية الجنوبية . وكذلك يشمل الجزر الكثيرة الواقعة فى المحيط الهادى التى كانت من قبل تابعة لألمانيا . وفى هذه الحالة تحكم تلك الأقطار كجزء لا ينفصل من بلاد الدولة صاحبة الانتداب . ولذلك كان هذا النوع أقرب شىء إلى النظام الاستعمارى القديم .

توزيع الانتداب:

كان الواضعون لمبدأ الانتداب والذين دعوا إليه يظنون أن توزيع الأقطار التى يطبق عليها نظام الانتداب سيجرى بطريقة خلاف التى اتبعت فعلا فيما بعد . كانوا يرون أن توضع تلك الأقطار جميعاً تحت

تصرف عصبة الأمم ، وللعصبة الحق فى أن تنتدب من تشاء من الدول للاضطلاع بهذا العبء ، وأن تخصص لكل دولة القطر الذى تشرف على إدارته أو تتولى إرشاده ومساعدته . وللعصبة الحق فى نظرهم أن تتولى هى الإشراف على أى قطر من تلك الأقطار ، وأن تعين الهيئة التى تتولى الانتداب بالنيابة عنها . وقد حاول أصحاب هذا الرأى أن ينصوا على هذا فى ميثاق عصبة الأمم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا التأييد اللازم لرأيهم واضطروا إلى النزول عنه .

نظراً لأن الانتداب بالصورة التى حددها ميثاق العصبة عبء ثقيل تضطلع به الدولة المكلفة به ، وهو غرم وليس بغنم ، كان المنتظر أن تتردد الدول فى قبول هذا التكليف الثقيل ، وأن تتريث كل منها قبل أن ترشح نفسها لهذه التضحية المرهقة . ولكن الذى حدث فعلا هو أنه كان هناك تزاحم شديد على تولى الانتداب ، ورغبة حارة فى الاستكثار منه جهد الطاقة . ولذلك لم تر الدول الظافرة فى الحرب أن تترك أمر توزيع الانتدابات إلى هيئة مستقلة أو شبه مستقلة — مثل عصبة الأمم — وفضلت أن تجرى بينها المساومات والمفاوضات فى اجتماعات خاصة تعقدها حتى يتفق رأيها على ذلك التوزيع .

وفى النهاية عقدت الدول الكبيرة مؤتمراً فى سان ريمو بإيطاليا — فى ربيع عام ١٩٢٠ — واتفقت على توزيع الانتدابات بين الدول . وخرجت بريطانيا وفرنسا من هذا التوزيع بنصيب الأسد واختصت اليابان بجزر المحيط الهادى ما عدا جزيرة ساموا التى تركت لزيلندة الجديدة ،

وكلفت أستراليا بإدارة الجزء الألمانى من جزيرة غينيا الجديدة . وطلبت بلجيكا أن يكون لها نصيب من هذه الأشياء فأعطيت — على سبيل جبر الخاطر — قطعة من شرق أفريقية الألمانى ، وهى القطعة التى تشتمل على إقليم رواندا وأرندى . أما إيطاليا فلم تعط شيئاً مطلقاً وخرجت من المؤتمر صفر اليدين ، مع أنه عقد فى أرضها وتحت سمائها الجميلة .

وهكذا لم يخل توزيع الانتدابات من ظاهرة التكالب والتزاحم والتدافع التى رأيناها من قبل فى النشاط الاستعمارى فى القارة الأفريقية .

ولا بد لنا أن نلاحظ أن توزيع الانتدابات على هذه الصورة لا يخلو من التناقض مع روح نظام الانتداب نفسه . فإن هذا النظام يقضى بأن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن أعمالها أمام عصبة الأمم . فمن الغريب أن تكون دولة مسئولة أمام هيئة لم تنتدبها ولم تكلفها النهوض بتلك الأعمال التى ستسألها عن تأديتها .

تنفيذ الانتداب :

والآن لا بد لنا أن ننظر كيف يؤدى الانتداب وظيفته طبقاً للنظم التى قررتها عصبة الأمم ، فهنالك هيئات مكلفة بالإشراف — ولو من بعيد — على نظام الانتداب ومحاسبة الدولة المنتدبة عن أعمالها ولو حساباً يسيراً .

والهيئة الأولى صاحبة الشأن فى مراقبة الانتداب من بعيد هى مجلس عصبة الأمم المؤلف من بضع عشرة دولة . وهو المرجع الأكبر للبت فى

جميع الشئون المتصلة بالانتداب — فإليه ترفع التقارير والشكاوى والمقترحات الخاصة بتعديل شروط الانتداب أو إلغاء الانتداب فى أى قطر من الأقطار وإحلال أى نظام آخر محله .

وعلى الرغم من أن مجلس العصبة هو الهيئة المختصة بمسائل الانتداب ، فليس هنالك مانع يمنع أى عضو من أعضاء العصبة من إثارة أى موضوع خاص بالانتداب فى اجتماعات الجمعية العامة التى تضم جميع أعضاء العصبة . ولكن نظراً لأن هذه الجمعية لا تعقد جلساتها سوى مرة واحدة فى كل عام ، كان أثرها فى مسائل الانتداب ضئيلا لا يستحق الذكر .

ولكن هنالك هيئة أخرى كان لها شأن خطير فى شؤون الانتداب . وهى الهيئة التى أطلق عليها إسم لجنة الانتداب . وتتألف من أشخاص فنيين لهم دراية خاصة بشؤون الحكم والاستعمار يختارهم مجلس العصبة لمساعدته وإرشاده فى كل أمر يتصل بالانتداب . كانت هذه اللجنة تعقد اجتماعاتها مرة فى كل عام على الأقل ، وتتلقى التقارير الرسمية التى ترفعها الدول المنتدبة عن الأقطار التى كلفت بإدارتها أو الإشراف عليها ، ويحضر مندوب خاص من كل دولة صاحبة انتداب لكى يجيب الأسئلة التى توجهها إليه اللجنة .

ولعل هذه اللجنة هى الأداة الرئيسية فى نظام الانتداب . لأنها هى التى كانت تتولى فعلا مناقشة مندوبى الدول صاحبة الانتداب ومحاسبتهم عن أعمالهم ، ولكنها لا تملك من السلطة أكثر من أن ترفع بياناً ببحثها هذا إلى مجلس العصبة لكى ينصرف فى الأمر كما يشاء . وفوق ذلك

لم يكن من حق اللجنة أن تحاسب الدول صاحبة الانتداب إلا بمقدار ما تسمح به نصوص وثيقة الانتداب نفسها .

هذه الوثيقة التى أطلق عليها أحياناً اسم « صك الانتداب » هى التى تتضمن الشروط التى يقوم عليها الانتداب ، فلا يمكن مؤاخذة الدولة المنتدبة على أمر من الأمور إلا إذا كان مخالفاً لبنود تلك الوثيقة . ومن المهم هنا أن نلاحظ أن هذه الوثيقة قد وضعتها الدولة صاحبة الانتداب نفسها ، وهى التى رتبت فصولها وبنودها . ثم رفعتها بعد ذلك إلى مجلس العصبة لكى يقرها .

ومن الجائز أن يعدل المجلس فيها تعديلا طفيفاً ، ولكنه قلما يمس جوهر تلك الوثيقة . وهذا من غير شك عيب كبير فى نظام الانتداب كله وإجراء معكوس من أوله إلى آخره . فلقد كانت الدولة تنتدب أولا على قطر من الأقطار ثم تقوم هى بوضع شروط الانتداب ثم تعرضها على المجلس للموافقة . وكان الواجب يقضى بأن تكون هنالك هيئة مستقلة — ولتكن السكرتارية العامة لعصبة الأمم — تضع شروط الانتداب لكل قطر طبقاً لروح ونصوص ميثاق عصبة الأمم . وبعد أن يوافق المجلس على هذه الشروط يختار الدولة التى تقبل الانتداب طبقاً لتلك الشروط .

وذلك الإجراء المعكوس قد مكن بعض الدول من أن تضع فى صك الانتداب أموراً لا تتفق مع ميثاق العصبة ، أو أن تجعل شروط الانتداب مرنة سهلة ، بحيث لا تقيدها فى أعمالها بقيود جدية ، وتجعل من الصعب محاسبتها على أى إجراء شاذ تقوم به . وعلى سبيل المثال نذكر هنا أن

بلجنة الانتداب فى سنة ١٩٢٤ حاولت أن تؤاخذ فرنسا على تقسيمها سوريا إلى أربعة أقسام سياسية منفصلة . ولكن اللجنة لم تستطع أن تخرج من هذا الجدال بنتيجة لأن صك الانتداب الفرنسى على سوريا لم يكن يشتمل على نص يمنع تقسيم البلاد وتمزيقها إلى عدة قطع .

وهكذا نرى أن أكبر ما يميز الانتداب عن الاستعمار هو هذه الرقابة المطلقة التي يقوم بها مجلس عصبة الأمم بمعاونة لجنة الانتداب . ولا يفوتنا أن نذكر أن ليس للجنة أو المجلس حق للتفتيش أو القيام بأى إجراء فى داخل القطر الواقع تحت الانتداب ، بل يجب الاكتفاء بالتقارير الرسمية التي ترفعها الدولة المنتدبة ، وبالشكاوى الحرة التى تأتيه أحياناً من مختلف الهيئات والأفراد .

كذلك لم يكن فى ميثاق العصبة أى نص يخولها أن تؤاخذ الدولة المنتدبة على أى إجراء تقوم به أو أى جزاء توقعه عليها ، مثل سحب الانتداب أو نقله إلى دولة أخرى ، أو أى إجراء مماثل . ولعل هذا النقص جزء من النقص العام فى كيان العصبة ، ومظهر آخر من مظاهر عجزها عن إرغام الدول على القيام بالتزاماتها .

سير الانتداب :

إن غرضنا الأول من هذا البحث أن نوضح الأركان الأساسية لنظام الانتداب ، وليس لدينا هنا متسع لأن نتتبع سير الانتداب فى كل قطر من الأقطار . ولكن لابد لنا مع ذلك أن نذكر هنا بشىء

من الإيجاز بعض الأحوال التى نجمت عن الانتداب فى بعض الجهات لكى ندرك إلى أى درجة كان هذا النظام الجديد خيراً من النظام الاستعمارى القديم . وحسبنا الآن أن نشير إلى الأمثلة الآتية :

١ ــ تولت اليابان الانتداب على عدد كبير من جزر المحيط الهادى ، ثم لم تلبث أن خرجت من عصبة الأمم كلها . واحتفظت بتلك الجزر ، وأخذت تجعل منها قواعد حربية تديرها كأنها ملك لها لا تؤدى عنه حساباً أو تصدر عنه بياناً لأية هيئة من الهيئات أو دولة من الدول .

٢ ــ ارتكبت فرنسا فى انتدابها على سوريا مخالفات خطيرة ، أهمها قمع الحركة الوطنية بأساليب بالغة منتهى العنف ، مع أن الميثاق صريح فى أن واجبها الأول تأييد الحركة الوطنية والسير بها إلى الاستقلال التام . وارتكبت فرنسا فوق ذلك ما هو أجل من هذا خطراً ، فقد نزلت لتركيا فى عام ١٩٣٠ عن إقليم قليقية ، ثم نزلت لها فى عام ١٩٣٩ عن سنجق الإسكندرونة . وقامت بكلا الإجراءين ــ وهما يشتملان على مخالفات صريحة لصك الانتداب ــ دون الرجوع إلى عصبة الأمم .

٣ ــ بدأت بريطانيا سياستها فى العراق بقمع الحركة الوطنية وبإرسال جيش بقيادة الجنرال سير آيلمر هولدين لهذا الغرض عام ١٩٢٠ ، ثم اضطرت بعد أن اقتنعت بإخفاق سياسة العنف إلى إيجاد ذلك الحل الجديد المبتكر وهو أن تنشىء معاهدة بينها وبين حكومة العراق لتحل محل الانتداب ، وهكذا استبدل العراق بقيود الانتداب قيداً جديداً قبله بمحض اختياره .

٤ ــ ولا يتسع المقام هنا للإشارة إلى الانتداب الفلسطينى الشاذ . ولكن أمره على كل حال معروف للقراء فى جميع الأقطار العربية . وربما كانت هنالك ناحية واحدة لهذا الانتداب الشاذ لا يذكرها أكثر الكتاب ، وهى أن مشكلة فلسطين مشكلة خلقتها بريطانيا خلقاً عن عمد وعن سبق إصرار لكى تثبت أقدامها فى هذا الركن الخطير من أركان العالم . فقد أدركت السياسة البريطانية أن لفلسطين من الموقع الحربى والأهمية الروحية لجميع الشعوب ما يجعل السيطرة عليها أمراً لازماً لدولة مثل بريطانيا . ورأى الساسة البريطانيون أن ميثاق العصبة ينص صراحة على أن سكان فلسطين يؤلفون أمة ذات كيان مستقل ولا تحتاج إلا لقليل من الإرشاد والمساعدة لكى تنال الاستقلال التام . فلم يكن بد من إدخال عنصر جديد فى السكان بطريقة توغر صدور العرب ، وبذلك يسود البلاد النزاع والشقاق ، وتشتد الحاجة إلى حاكم « محايد » لكى يفصل بين المختصمين ، وبذلك تضمن بريطانيا بقاءها فى فلسطين إلى أجل غير مسمى .

وهكذا عمدت بريطانيا إلى خلق مشكلة مفتعلة من أجل تثبيت أقدامها فى فلسطين . ولكيلا يكون لدى القارئ أدنى شك فى هذا ، فإنى أسوق إليه دليلين من شهادة كاتبين من كبار الكتاب البريطانيين أنفسهم :

فقد جاء فى الجزء الرابع من كتاب المؤرخ العظيم الأستاذ تمبرلى عن مؤتمرات الصلح العبارة التالية :

« كان لدى بريطانيا أسباب خاصة دعتها إلى السياسة التى اتبعتها فى فلسطين . وهذه الأسباب قد نتبينها فى المزايا البديهية لتغطية قناة السويس من الناحية الشرقية ، فى إقليم يسكنه عنصر من الناس يرى مصلحته فى تأييد بريطانيا ومؤازرتها ، هذا إلى جانب ما تناله من تأييد اليهود فى جميع أنحاء العالم . هذه هى النظرة البعيدة التى اقتضتها المصالح البريطانية الاستعمارية [١]» .

هذه العبارة ذات المدلول الواضح جاءت فى كتاب من الطراز الأول لمؤلف من كبار المؤرخين البريطانيين . وكنا نستطيع الاكتفاء بها ، ولكنا رغبة فى زيادة الإيضاح نشير إلى ما جاء فى كتاب آخر لمؤلف وسياسى مشهور وهو السير مارتن كونواى [٢]. وقد استطاع أن يعالج هذا الموضوع بصراحة يشكر عليها . قال حضرته : « إن الخطر الحقيقى على قناة السويس لا يجىء من الغرب بل من الشرق . فمن ناحية فلسطين يجىء الخطر الجدى دائماً . . . ومن وراء فلسطين سوريا — ومن وراءسوريا الأتراك—ومن وراء الأتراك أية دولة قد تكون معادية لبريطانيا : ألمانيا فى الماضى أو روسيا فى المستقبل . . . من يدرى ؟ ولقد أثبت الفرنسيون أنهم أنداد ينافسوننا لا أصدقاء يعاونوننا . ولذلك كان قبض بريطانيا على فلسطين مصلحة إمبراطورية من الطراز الأول .

---

(١) Harold Temperly, History of Thepeace Conference, Vol (IV),P. 171

(٢) Sir Martin Conway, palestine and Morocco, Ch., XII, 1932.

"Great Britain's hold on Palestine is an Imperial interest of the first order".

ثم يمضى الكاتب بعد ذلك لكى يشرح فائدة وجود طائفتين مختصمتين فى فلسطين، وما يتطابه هذامن وجود هيئةخارجية محايدة لكى تحمى كل فريق من عدوان الآخر . وهذه فى نظره حالة مثالية لأنها تتطلب بقاء بريطانيا فى فلسطين إلى أجل غير محدود .

وهكذا يرى القارئ أننا لا نظلم بريطانيا أقل ظلم حين نقرر أنها خلقت المشكلة الفلسطينية خلقاً من أجل تثبيت أقدامها فى فلسطين ، وأنها جعلت من الانتداب وسيلة لمتابعة سياستها الاستعمارية .

الانتداب والوصاية :

واضح مما تقدم أن الانتداب قد ارتكبت فى ظله آثام وشرور جعلته بغيضاً إلى العيون والأسماع ، حتى آمن الناس جميعاً بأن نظام الانتداب ما هو إلا مظهر جديد من مظاهر الاستعمار ، بل إن بعض مظاهره قد تكون أبشع وأفظع مما عرف فى تاريخ الاستعمار كله .

من أجل ذلك أراد المرحوم الرئيس روزفلت أن يخلق نظاماً جديداً ، وأن يجعل له اسما جديداً واختار للحالة الجديدة اسم « الوصاية » بدلا عن الاسم القديم المكروه . وقد أراد رحمه الله أن يدخل جميع المستعمرات والحمايات ومناطق النفوذ ضمن نظام الوصاية الجديد ، وألا يكون هذا النظام مقصوراً على الأراضى التى سلخت من إيطاليا واليابان

بسبب الحرب العالمية الثانية . ولكن الأجل لم يمهل الرئيس الجليل ، فقضى نحبه قبل انعقاد مؤتمر سان فرانسسكو بأسبوعين اثنين ، وهو المؤتمر الذى أنشأ نظام الوصاية الجديد ووضع بنوده ونصوصه ، وضمنها ثلاثة فصول من ميثاق الأمم المتحدة ، وهى الفصل الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر .

وأريد أن أتجنب مضايقة القارئ فلا أشرح له تفاصيل نظام الوصاية كما سبق لى أن شرحت نظام الانتداب . فإن مثل هذا الشرح التفصيلى يستدعى تكراراً مملا . وحسبى أن أذكر هنا النواحى الهامة التى يختلف فيها نظام الوصاية عن الانتداب من الناحية النظرية الصرفة . وتتخلص هذه الاختلافات فيما يلى :

١ ــ تمتاز وثيقة الوصاية بأنها تتناول المستعمرات والأقطار التى لا تدخل تحت نظام الانتداب القديم أو نظام الوصاية الجديد، وذلك بأن تعهدت الدول فيما يختص بتلك الأقطار بأمور هامة . إذ أعلنت أن مصالح هذه الأقاليم لها المقام الأول ، وأنها ترى أن من واجب كل دولة أن تعمل على تنمية رفاهية سكان هذه الأقاليم وأن تكفل تقدم هذه الشعوب فى السياسة والاقتصاد والتعليم ، وأن تنمى فيها الحكم الذاتى ، وأن تقدر الأمانى السياسية لتلك الشعوب حق قدرها . وأن ترسل ــ فوق ذلك ــ بيانات عامة : فى مواعيد منتظمة عن أحوال كل قطر إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة .

٢ ــ أدخلت فى نظام الوصاية ظاهرة جديدة وهى تقسيم الأقطار إلى قسمين : أقطار ذات صفة عسكرية ، وأخرى ليست ذات صفة عسكرية . والمفهوم أن هذا التقسيم قد عمل إرضاء للرأى العام الأمريكى الذى أبدى تمسكه بجزر المحيط الهادى ليجعل منها قواعد عسكرية لمنع العدوان اليابانى أو أى عدوان آخر فى المستقبل .

٣ ــ تكون الأقطار ذات الصفة العسكرية تحت إشراف مجلس الأمن . أما الأقطار الأخرى التى توضع تحت نظام الوصاية فتكون تحت إشراف مجلس الوصاية وهو هيئة تابعة للجمعية العامة .

٤ ــ لمجلس الوصاية حق التفتيش وزيارة الجهات الخاضعة لنظام الوصاية .

٥ ــ يجوز أن تسند الوصاية على أى قطر إلى هيئة الأمم المتحدة نفسها لا إلى دولة من الدول .

هذه هى الفروق الجوهرية بين النظام الجديد والقديم . ونلاحظ أنه ليس فى الميثاق نص على كيفية توزيع الأقطار بين الدول الوصية . وكذلك ليس هناك نص يمكن هيئة الأمم المتحدة من خلع أحد الأوصياء إذا أساء الوصاية ــ على الرغم من الجهود الكثيرة التى بذلت لإدخال مثل هذا النص .

وهكذا يرى القارئ أن نظام الوصاية لا يخرج كثيراً عن كونه

صورة ملطفة أو طبعة جديدة من نظام الانتداب . وليست العبرة على كل حال بالنصوص النظرية التى تضمنها هذا الميثاق أو ذاك .

فقد رأينا أن نصوص الانتداب لم تكن فى ذاتها رديئة . وإنما العبرة بتطبيق هذه النظم ، وبالروح التى تمارس بها كل دولة عملها ، وتؤدى بها رسالتها وتنفذ عهودها .

٤

الاستعمار العسكري

يحلو للدول الاستعمارية أحياناً أن تبحث عن ذريعة تتذرع بها لاغتصاب بعض الأقطار ، تجنباً للاعتراف بأن الدوافع الحقيقية لسياستها هي شهوة التملك والجشع الاستعماري الصرف . ولذلك نراها تزعم في مختلف المناسبات أنها لم تلجأ إلى اغتصاب بقعة ما من الأرض واحتمال الأعباء الباهظة التي يفرضها عليها هذا الاغتصاب ، إلا لضرورة لا مفر منها ، وهي ضرورة الدفاع ضد عدوان تتوقعه أو تتوهمه . وقد تمر الأجيال والقرون دون أن يحدث هذا العدوان ، أو قد يحدث العدوان بسبب التوسع الاستعماري نفسه ، وبسبب الاستيلاء على بقعة بالذات ، ومع ذلك تظل هذه الدول مصرة على زعمها أن بواعث الدفاع هي التي تضطرها للتمسك بتلك الأقاليم .

وهذه البقاع التي تغتصب بدعوى الدفاع ضد عدو مجهول أو مزعوم ، يطلق عليها عادة اسم المستعمرات العسكرية . وهي تختلف في كمها وكيفها اختلافاً شديداً : فمنها ما هو صخرة صغيرة مثل مستعمرة جبل طارق ، ومنها ما يتناول قطراً بأكمله بأراضيه وسكانه وعامره وغامره مثل القطر المصري الذي وصفته السياسة الاستعمارية أكثر من مرة بأنه جزء من « مواصلاتنا الإمبراطورية » .

وذريعة الدفاع العسكرى ذريعة واسعة لا تقف عند حد ، ولا يسكن لها جشع . فمن أجل الدفاع عن الهند عملت بريطانيا على تحويل المحيط الهندى كله إلى بحيرة بريطانية ، فأصبحت سواحله الأفريقية كلها – باستثناءات تافهة – يرفرف عليها العلم البريطانى . وأمكن لبريطانيا بعد الاستيلاء على عدن أن تمد نفوذها على الشاطئ الجنوبى للجزيرة العربية ، كما استطاعت أن تبسط نفوذها على معظم الخليج الفارسى وأن تبعد عنه كل نفوذ أجنبى وبذلك تم لها ما أرادت، بأن حولت المحيط الهندى إلى بحيرة بريطانية خالصة لوجه بريطانيا العظمى . . كل هذا من أجل الدفاع عن النفس !

وكثيراً ما عملت الطبيعة على إثارة الشهوات الاستعمارية لأن البحار فى مواضع كثيرة تضيق بحيث لا يفصل الشاطئين أحدهما عن الآخر سوى ممر ضيق ولذلك نسميه مضيقاً أو بوغازاً [١] . وهذه المضايق من أهم الظاهرات الطبيعية التى يسيل لها اللعاب الاستعمارى ، لأن من يسيطر على المضيق يتحكم فى طرق الملاحة ويضع السفن والأساطيل تحت رحمته ، وعندما استولت فرنسا فى الربع الأخير من القرن الماضى على مستعمرة جيبوتى ، وهى الواقعة على مضيق باب المندب صاح الساسة البريطانيون – فى ألم شديد – بأن فرنسا قد قبضت على عنق الإمبراطورية البريطانية .

ولا ينبغى للقارئ أن يعجب من الإشارة إلى عنق الدولة لأن بعض

---

(١) البوغاز فى اللغة التركية معناه العنق .

الدول بلا شك لها عنق شديد الخطر ، حساس إلى أقصى درجات الحساسية ، بحيث يجب أن يحاط بأنواع الوقاية والرعاية حذراً عليه وعلى الدولة التى ينتمى إليها من أن يصيبها السوء . . . فالعنق عضو حساس فى الدول كما هو عند الناس على حد سواء . ولقد يطول هذا العنق ويمتد حتى ليمكن أن توصف بعض الدول بأنها عبارة عن عنق طويل قد التصقت به أجزاء وأعضاء وأشلاء متنوعة . ولولا هذا العنق العظيم ما جاز لهذه الأوصال المتفرقة المتباعدة أن تؤلف جسماً متحداً ولا كياناً مؤتلفاً .

وبديهى أن ليس لكل دولة عنق ، كما أن من ضروب الحيوان ما ليس له عنق يستحق الذكر مثل الأسماك وما يشابهها من الكائنات ومنها ما له عنق عظيم مثل النعام والزراف والإبل وأضرابها . وكذلك الدول . ولا شك أن خير مثال للدولة ذات العنق الطويل العظيم هو بريطانيا العظمى التى يمتد عنقها من الجزائر البريطانية فى المحيط الأطاسى إلى مضيق سنغافورة ، وهو الباب المفضى إلى المحيط الهادى. وهكذا أمكن لهذا العنق الهائل أن يدور حول الكرة الأرضية دورة عجيبة وأن يشمل جهات وأقطاراً متباعدة مترامية وأن يخلق مشكلة معقدة فى كل بقعة يمر بها .

إن وجود المضايق التى تصل ما بين البحار وتقرب ما بين القارات هو بلا شك نعمة من أجل النعم التى أتاحتها الطبيعة للإنسان ويسرت بها وسائل للانتقال بين البحار والمحيطات ولولاها لكان كثير من البحار مثل البحر الأحمر والأسود والأبيض المتوسط والبحر البلطى عبارة عن بحيرات مغلقة يتعذر الوصول إليها وتعجز السفن عن الانتقال إليها . فانظر كيف

تحولت هذه النعمة الجليلة إلى نقمة على الدول والشعوب بفضل سياسة الاستعمار وحرص الدول على أن تستأثر دون غيرها بتلك المواقع الخطيرة .

وقد حرصت الدول على التكالب على امتلاك المضايق ؛ وسفكت من أجل ذلك دماء ، وأزهقت أرواح ؛ والأصل فى هذا التكالب أنه يكون بسبب توهم بعض الدول أن هذا التملك عمل تمليه المصلحة ؛ لأن هذا الطريق البحرى الضيق هو كما وصفنا بمثابة العنق من جسمها . غير أن الدول الاستعمارية كثيراً ما يجيش صدرها بشهوة القبض على المضايق ، ولو لم تكن « عنقاً » لها وليس له بها أدنى صلة . لأن القبض على مضيق خطير أمر تشتهيه تلك الدول لذاته . لأنه إن لم يكن عنقاً للدولة القابضة عليه ، فإنه على كل حال عنق لغيرها من الدول . ومن ذا الذى لا يرضيه فى السياسة الاستعمارية أن يقبض على أعناق الدول الأخرى صديقة كانت أم غير صديقة ؟

لذلك قامت بريطانيا ــ وغرامها بالمضايق قديم وحبها للأعناق حب مبرح ــ بعد الحرب العالمية الأولى ، بإثارة حرب أخرى صغيرة فى الشرق الأدنى من أجل بسط نفوذها على مضيقات البسفور والدردنيل ، مع أن هذا الطريق الخطير هو العنق الحساس لدول مثل بلغاريا ورومانيا وروسيا وليس لبريطانيا به شأن ؛ إذ ليس لها جزيرة واحدة أو صخرة فى جميع أنحاء البحر الأسود حتى تبرر بذلك الاستيلاء على هذا الإقليم . ولكن هذا لم يمنع بريطانيا من أن تشتهى القبض على هذه المضايق الخطيرة لكى تصبح وحدها هى القابضة على تلك الأعناق الحساسة . وبادرت

باحتلالها بجيوشها وأساطيلها وأرادت أن تنشىء نظاماً للحكم تصبح بمقتضاه صاحبة الأمر والنهى فيها . ولقد رأينا فرنسا التى خاضت غمار الحرب العالمية الأولى مع صديقتها وحليفتها تغار على هذه المواقع الهائلة أن تقع فى يد صديقتها وزميلتها ، فأخذت تكيد لها وتمد تركيا بالمعاونة الصادقة لكى تنتصر وتفوز بهذه المضايق حتى تستبعد بذلك نفوذ حليفتها العزيزة . وقد اضطرت بريطانيا إلى التخلى عن المضايق وفى صدرها حسرة ، لأن شعبها الذى أنهكته الحرب العالمية الطويلة ، لم يكن فى ذلك الوقت مستعداً لأن يخوض غمار حرب أخرى . وقد صاح الاستعماريون فى ذلك الوقت فى كمد وحسرة بأن بريطانيا تضيع ثمرات النصر فى الحرب العالمية الأولى . كأنهم لم يكفهم الاستيلاء على نصيب الأسد من مستعمرات ألمانيا . ولكن صيحة الألم هذه لم يكن لها أثر عملى ، ولجأت السياسة إلى طريقتها المألوفة فتغيرت الوزارة البريطانية وحل المستر بونارلو محل المستر لويدجورج .

* * *

واضح مما تقدم أن الاستعمار العسكرى من أهم الذرائع التى تتذرع بها السياسة البريطانية وأنه يتمثل بوجه خاص فى المضايق والاستيلاء عليها ولذلك يجدر بنا أن نتناول هذه الظاهرة ببعض التفصيل .

فرأس الدولة البريطانية — الممثل فى تلك الجزر المنبسطة فى الشمال الغربى من أوربا — منفصل عن سائر جسم الإمبراطورية انفصالاً شديداً . ورأى الاستعماريون أن لا بد من عنق هائل طويل

يصل ذلك الرأس ببقية الجسم ثم لا بد بعد ذلك من بذل جهود جبارة حتى لا يمس هذا العنق بسوء .

وأول فقرة من فقرات هذا العنق هى مضيق دوفر . ها هنا يضيق بحر المانش ويقترب الساحلان الأوربى والبريطانى بحيث لا يفصلهما إلا مسافة تقرب من العشرين ميلا . وقد ربضت على أحد جانبي المضيق انجلترا وعلى الجانب الآخر فرنسا ، تنظر إحداهما إلى الأخرى نظرة الخصم اللدود حيناً ونظرة الصديق المتكلف حيناً . وليست حيازة هذا المضيق والاستيلاء عليه بأمر ذى خطر لانجلترا . وكان الأمر البديهى أن يكون الساحل الفرنسى لفرنسا ولكن هذه لم تكن الحال فيما مضىٰ من الزمان ؛ فقد جاء على بريطانيا حين من الدهر بسطت فيه نفوذها على الساحل الأوربى للمضيق وقبضت على مدينتى كاليه وبولونيا وقد بقيت الأولى فى حوزتها زمناً غير قليل، وقد صححت الأوضاع فيما بعد وأصبح الساحل الفرنسى ملكاً لفرنسا غير أن بريطانيا لا تزال شديدة الإحساس لما قد يتعرض له هذا المضيق من خطر حقيقى أو موهوم، ولذلك رأينا الحكومات البريطانية ترفض السماح بإنشاء نفق تحت المانش ، يصل الأراضى الفرنسية بالإنجليزية مع أن هذا النفق جايل الفائدة للدولتين فى وقت السلم والحرب.

والظاهر أن بريطانيا قد تعلمت على سواحل مضيق دوفر حب المضايق والاستيلاء عليها، ولذلك نراها فى وقت مبكر وفى ظروف مريبة تقبض بشىء من العنف وفى شىء غير قليل من الخيانة على حصن جبل طارق لكى تتحكم فى هذا الموقع الشديد الخطر ، أو الذى

أصبح فيما بعد عظيم الخطر .

استولت انجلترا على جبل طارق فى أول القرن الثامن عشر ولم تلك هنالك قناة السويس ولم يكن هذا المضيق طريقاً إلى الهند . استولت عليه فى ظروف غريبة . تجلت فيها السياسة البريطانية فى أوضح مظاهرها . ذلك أنها فى عام ١٧٠٤ كانت تحارب إلى جانب هولندا والنمسا عدوتها القديمة فرنسا ومعها أسبانيا . وهى الحروب التى أطلق عليها اسم حرب وراثة العرش الأسبانى . وفى إحدى حوادث تلك الحرب استولى الأسطول الهولندى الإنجليزى على حصن جبل طارق وكان الاستيلاء عليه من أجل ولى عهد النمسا وباسمه . غير أن الأميرال البريطانى بادر فرفع الراية البريطانية على الحصن . وأسرعت حكومة ذلك العهد فأقرت عمل الأميرال فأصبح الحصن أرضاً بريطانية منذ نحو قرنين ونصف قرن من الزمان .

لم تكن لمضيق جبل طارق فى ذلك الوقت تلك الأهمية التى أصبحت له فيما بعد . ولكنه لم يلبث أن أصبح من أجلّ المواقع خطراً . وظهرت ميزاته الطبيعية والحربية . فعنده يضيق البحر جدا وتدنو أفريقية من أوربا بحيث لا يفصل إحداهما عن الأخرى سوى بضعة عشر ميلا ، وفى وسع مدافع الحصن أن تتحكم فى كل سفينة تمر من هذا المضيق .

وكانت دول أوربا فى شغل بشئونها الخاصة أول الأمر ولكنها بعد أن انتهت من سياستها وأخذت تتزاحم فى حلبة الاستعمار ، اشتد تكالبها على هذا المضيق حتى لقيت إنجلترا عنتاً شديداً ومشقة هائلة لكى تذود الدول عن هذا الجزء الحساس من عنق الدولة البريطانية ،

فقد أخذت تتطلع إلى شواطئ هذا المضيق دول خطيرة مثل ألمانيا وفرنسا وأسبانيا ، بحكم الجوار — والجار كما يقولون أولى بالشفعة — ولم يقتصر الأمر على الشاطئ الأوربي للمضيق بل تجاوزه إلى الشاطئ الإفريقي أيضاً .

ولم تستطع بريطانيا أن تذود جميع الدول عن شواطئ المضيق فرأت أن تقبل أهون الشرين وأن تشجع أسبانيا على احتلال شطر عظيم من سواحل هذا المضيق فى الجانب الإفريقى ، لأنها فى ذلك الوقت لم تكن دولة ذات خطر . لهذا رأينا بلاد الريف تقتطع من مراكش وتعطى لأسبانيا وذلك لكى تحرم منها فرنسا . فما كان لبريطانيا أن ترتاح لرؤية صديقتها فرنسا على الساحل الإفريقى من مضيق جبل طارق .

ولكن بريطانيا لم ترض أن يكون الساحل الإفريقى كله خالصاً لأسبانيا ، فهنالك موضع عظيم الخطر لم تستطع بريطانيا أن تأخذه لنفسها ، ولكنها لم تتركه لأسبانيا ، وهذا الموضع هو مدينة طنجة والأرض المحيطة بها ، وهى بلا شك مفتاح المضيق من الجانب الإفريقى . وقد طمعت فى طنجة كل من فرنسا وألمانيا وأسبانيا وبريطانيا ، وانتهى هذا النزاع والتدافع بأن أنشىء لطنجة نظام دولى تشترك فيه نحو أربعة من الدول ، وقد تغيرت وتبدلت قليلا وهى فى الوقت الحاضر بريطانيا وفرنسا وأسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية . ولبلجيكا أيضاً عدد من الوظائف فى طنجة جرت العادة على أن لا يعين فيها سوى البلجيكيين . . .

وتمثل طنجة حالة فريدة منقطعة النظير فى الميدان الاستعمارى

كله ، وذلك بفضل موقعها الممتاز على هذا المضيق الخطير .

والموضع الذى يلى جبل طارق فى الطريق إلى الشرق وإلى الهند هو بالطبع جزيرة مالطة ، وهى أيضاً تشرف على مضيق عظيم الخطر . وإن لم ينتبه إليه أكثر الناس ، وهو مضيق صقلية . فهنا تقترب أفريقية مرة أخرى من أوربا ، وتدنو تونس من صقلية وتقف جزيرة مالطة فيما بينهما فى منتصف المسافة تحرس الطريق الضيق الذى يصل النصف الغربى من البحر المتوسط بالنصف الشرقى فى موقع إستراتيجى من الطراز الأول . وقد وضح ما له من الخطر بعد حفر قناة السويس وازدياد الملاحة فى البحر المتوسط . غير أن الإنجليز لم ينتظروا حتى تزداد أهمية ذلك الموقع بل بادروا فاستولوا على هذه الجزيرة فى أوائل القرن التاسع عشر ، فى ظروف تحاكى تلك التى قبضوا بها على جبل طارق وبوسائل مشابهة .

ثم قناة السويس — وما أدراك ما قناة السويس ! — فقرة ضئيلة جداً ، خطيرة جداً ، من فقرات ذلك العنق العظيم . ليست ملكاً لصاحب العنق ، وليس له فيها حق مشروع ولم يشترك فى إنشائها وحفرها فلم يكن له عذر أو شبهة عذر فى المطالبة بأى حق من الحقوق فيها وأغلقت فى وجهه جميع الذرائع والوسائل التى تحمل ولو أتفه المبررات . ولذلك التجأ الاستعمار إلى سبيل الخيانة وإلى ارتكاب الإثم والعدوان ، ولم يكن بد من أن يحنث فى عهوده وأن تخرب الذمم ويتداعى الشرف الرفيع حتى ينهار . كل هذا من أجل السيطرة على هذه القناة الصناعية التى تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، وتقرب الطريق إلى المحيط الهندى وبلاد الشرق

الأقصى . من أجلها جيء بجيش جرار ليحتل هذه الديار . ومن أجلها استولت بريطانيا على جزيرة قبرص إمعاناً فى الحرص وخوفاً من أن تقع فى يد عدو موهوم قد يتخذها وسيلة للعدوان على القناة ومن أجلها اقتطعت فلسطين من جسم سوريا وخلقت المشكلة الصهيونية خلقاً . وارتكبت فى أثناء هذه السبعين عاماً من الآثام والشرور ما يعز أن نجد له مثيلا حتى فى تاريخ الأستعمار .

وقد تطور العالم وتطورت فنون الحرب والدفاع ووسائل التخريب والتدمير ، وأثبتت الحرب العالمية الأولى والثانية بوجه خاص أن طريق القناة عديم الفائدة وقت الحرب ولذلك لم يكن يستخدم فى الملاحة أثناء الحرب إلا نادراً ، فضاع بذلك السبب الأول فى حب السيطرة على القناة . غير أن العقلية الاستعمارية لم تتطور بتطور الزمن ، ولذلك ظلت متشبثة بالقناة تعض عليها بالنواجذ كما يعض الكلب على قطعة من العظم لم يبق فيها نفع ولا فائدة .

* * *

ولنمض بعد ذلك فى طريقنا نحو الجنوب . فلا نكاد نبلغ الطرف الآخر من البحر الأحمر ، حتى نرى هذا البحر يضيق مرة أخرى ، وكأنما آسيا قد اشتاقت إلى إفريقية فدنت منها دنواً شديداً ، وإذا الدول تتكالب على مضيق باب المندب كما تكالبت على مضيق جبل طارق . وإذا إنجلترا السباقة فى هذا الميدان قد قبضت يدها على عدن ؛ ثم جعلت تمدها ذات اليمين وذات الشمال ، تارة نحو حضرموت وطوراً نحو اليمن ، فلا تمضى

عشرات السنين حتى تصبح عدن مستعمرة حربية ذات حجم لا يستهان به وأصبح الساحل الشمالى لخليج عدن خاضعاً كله لبريطانيا . وإمعاناً فى الاحتياط للطوارئ والملابسات التى لا وجود لها بسطت بريطانيا نفوذها على الساحل الجنوبى لخليج عدن أيضاً حيث أنشأت ما يسمى مستعمرة السومال البريطانى .

وقد بادرت دول أخرى فأحرزت مواقع لها خطرها على هذا المضيق، ولعل أعظمها خطراً استيلاء فرنسا على جيبوتى (أو السومال الفرنسى) . وهو موقع خطر جداً لا يقل شأناً عن عدن نفسها . ولا شك أن فرنسا بسطت يدها عليه فى غفلة من بريطانيا . ولكن مركز بريطانيا هنا لم يزل ، برغم هذا كله ، مركزاً قوياً ممتازاً بفضل اتساع مستعمرة عدن وبفضل استيلائها على بعض جزر المضيق .

ولا تنتهى المطامع البريطانية فى الاستيلاء على المواقع العسكرية الممتازة عند مضيق باب المندب والوصول إلى المحيط الهندى كما قد يتوهم بعض الناس ، بل إن هنالك مضيقاً آخر لا يقل خطراً عما تقدم ، فى الطرف الجنوبى من آسيا : ألا وهو سنغافورة ، ذلك الطريق الضيق الخطير الذى يصل المحيط الهندى بالمحيط الهادى والذى تحرسه قاعدة حربية ضخمة أنفق فى إنشائها بضعة عشر مليوناً من الجنيهات الإسترلينية .

* * *

وبعد فهذا وصف موجز عن طائفة من البحار الضيقة التى

أنشب فيها الاستعمار مخالبه وقد تقدم فى صدر هذا الفصل ، أن الدول الاستعمارية تلتمس لنفسها المعاذير وتعزو اغتصابها لتلك الأقطار إلى الضرورة العسكرية وما يتطلبه كيان الدولة من قواعد الدفاع عنها ، وتأمينها ضد خطر حقيقى أو وهمى ، ونستطيع أن نفهم أن الاستعمار يحاول أن يستر وجهه بقناع من الأسباب والأعذار . ولكن الأمر المستغرب أن كثيراً من الناس يميلون إلى تصديق تلك الحجج ويرون فى تلك المعاذير بعض الوجاهة . لأن بريطانيا – فى نظرهم – قد تعددت ممتلكاتها. وانتشرت فى أنحاء أفريقية وآسيا . حيث كانت الهند بعظمتها وجلالها تؤلف وحدها إمبراطورية ضخمة ، ووراء الهند مستعمرات أخرى فى المحيط الهندى والهادى ولا بد من تأمين الطريق الموصل إليها .

تلك هى الحجج والمعاذير التى يقبلها كثير من الناس على أنها أعذار قوية وبراهين أكيدة . وينسى هؤلاء الناس أن مثل بريطانيا فى سياستها الاستعمارية ، كمثل قوم اغتصبوا منزلا فخماً واحتلوه على الرغم من أهله . ثم أخذوا يحتلون الطرق التى تؤدى إليه من أجل المحافظة على ذلك المنزل الضخم الذى اغتصبوه . . أى أن هذه المعاذير لا تعدو أن تكون عبارة عن تبرير سرقة لاحقة بسرقة سابقة . ولم يفكر هؤلاء الناس بأنه كان من الممكن الامتناع عن السرقات الأولى حتى لا يكون هناك حاجة أو شبه حاجة للسرقات الأخرى .

فالخطة الاستعمارية التى سلكتها بريطانيا ، والتى ظل أبناؤها زمناً طويلا يفتخرون بها ويرونها عنوان النبل والسؤدد والعظمة هى التى

جعلت الدولة البريطانية مبعثرة فى جميع الأنحاء ، وأثارت المشاكل الدولية التى أفضت إلى الحروب المدمرة . وهى التى قضت بأتباع أساليب الغش والخيانة والغدر من أجل الاستيلاء على أقطار جديدة فى كل ركن من أركان العالم .

٥

حَرْبُ الأفيون

لعل من الصعب على القارىء أن يتصور أن دولة من الدول تسخر جيوشها وأساطيلها وتشن حرباً عواناً تدوم عدة سنوات على بلاد آمنة مطمئنة لكى ترغم سكانها وحكوماتها على قبول الأفيون كسلعة تجارية مشروعة من أجل ما يجنيه تجارها من الأرباح الطائلة وما يحصلونه من الثروات الضخمة من المتاجرة فى هذه السموم . أجل قد يكون من الصعب علينا أن نتصور أن مثل هذا الجرم الشنيع ترتكبه دولة تنتمى إلى الدول ذات الحضارة والمدنيةوتنتسب إلى ديانة سمحة كريمة وهي الديانة المسيحية ؛ ومع ذلك فليس شيء بمستغرب فى الاستعمار لأن هذا هو ما حدث فعلا فى حربين عظيمتين شنتهما بريطانيا العظمى على بلاد الصين ما بين عام ١٨٤٠ وعام ١٨٦٠ . ولو أن بريطانيا شنت هذه الحرب من أجل الحصول على مزايا تجارية أو اقتصادية لأمكننا أن نعدعملها نوعاً من الاستعمار من الطراز الذى أطلقوا عليه اسم الاستعمار الاقتصادى الذى تضطر فيه الدولة الضعيفة لتسليم جزء من مواردها الاقتصادية إلى الدولة الغاصبة بشروط ظالمة مجحفة . ولكن حرب الأفيون كانت أكثر من مجرد عمل من أعمال الاستعمار الاقتصادى . لأن السلعة التى من أجلها شنت هذه الحرب كانت ضرباً من السموم الفتاكة التى أرادت حكومة الصين أن تحمى

زعيتها من غوائلها وشرورها فأبى الجشع الاستعمارى إلا أن ينزل الويلات والكوارث بالشعب الصينى وأن يزعزع أركان حكومته من أجل ما تجره التجارة من أرباح طائلة .

والصين كما نعلم بلاد عريقة فى الحضارة والمدنية وقد نبغ أهلها فى العلوم والفنون منذ عشرات القرون ، من قبل أن تعرف إنجلترا معنى الحضارة المادية أو الأدبية . ولم تكن بلاد الصين تعرف الأفيون إلى أن اتصلت ببعض الغربيين وسمحت لهم حكومتها بأن ينزلوا مدينة كانتون للتجارة فى القرن السابع عشر ، فأخذت هذه السلعة تظهر فى البلاد بالتدريج على أيدى بعض التجار من الهولنديين والبرتغال ولكنها كانت تجارة تافهة محدودة ، إلى أن دخل الميدان رجال من بريطانيا العظمى فاحتكروا السوق وأخذوا يدخلون السلعة إلى البلاد بمقادير متزايدة عاماً بعد عام .

هؤلاء التجار كانوا يعلمون تمام العلم نوع الجريمة التى يقترفونها مدركين كل الإدراك أن الأفيون كارثة فادحة على الصين وسكانها وأن عادة تدخينه تفتك بالجسم وبالعقل وتسلمهما بالتدريج إلى الدمار ، وكم من إقليم فى بلاد الصين أكب سكانه على الأفيون فلم يلبث رجاله أن أصبحوا عاجزين تمام العجز عن بذل أى مجهود جسدى أو عقلى فانحدروا بسرعة من حمأة الرذيلة إلى هوة اليأس [١] ولكن هذه الاعتبارات كلها لم يكن لها أدنى تأثير فى نفوس الإنجليز من تجار ورأسماليين ورجال

---

(١) راجع كتاب The Awakening of Asia (Hyndman) ص ٤٦ وما بعدها (لندن ١٩٤٩) .

السياسة والدولة فلم يكن يعنيهم سوى أمر واحد هو الأرباح الضخمة التى يجنونها فى سهولة ويسر .

ويعود رجال المال هؤلاء إلى بلادهم فى إنجلترا وقد امتلأت خزائنهم بالملايين من هذه التجارة الشنيعة ، وبهذه الملايين يصبحون ذوى قوة ونفوذ سياسى عظيم يمكنهم من أن يخرسوا كل معترض ويسكتوا كل محتج ، ويحيلوا الساسة ورجال الدولة أداة طيعة فى أيديهم . وعبثاً حاول بعض رجال الدين من طائفة الكويكرز أن يلفتوا النظر إلى شناعة الجرم وينشروا آراء رجال الطب عن التأثير الفتاك لهذه المخدرات . كانت كل هذه الصيحات بمثابة نسيم عليل يهب على صخرة جامدة فلا ينال منها شيئاً . ومن العجيب أن هذه الظاهرة تتكرر دائماً فى الاستعمار البريطانى ، فما من مشروع استعمارى قبيح مثل تجارة الرقيق أو السخرة والظلم أو نحو ذلك إلا نهضت جماعات تقاومه وتفضحه وتوضح ما انطوى عليه من المخازى ،وتجد هذه الجماعات جماهير تصفق لها وجرائد تفتح لها صفحاتها ، ولكن الحكومة التى بيدها الحل والعقد لا تعبأ بهذه الصيحات والنداءات ، وتمضى فى خطتها الاستعمارية قدماً ، دون أن تكترث لسخط الساخطين ونقد الناقدين ،وكأن هذه الثوره ليست أكثر من زوبعة فى قدح من الشاى ، وكأن تسمم الشعب الصينى لا يعدو أن يكون خطباً يسيراً ما دام يؤدى إلى جمع الثروات وامتلاك أقطار جديدة .

وفى وصف هذه السياسة يقول أحد الكتاب الإنجليز المتأخرين [١]

---

(١) نفس المرجع ص ٤٧ .

« وليس فى التاريخ التجارى الإنجليزى صفحة تلحق ببلادنا عاراً أشنع مما ألحقته بنا وبتجارنا وساستنا قصة الاتجار فى الأفيون مع الصين ، إذا سردناها ببساطة تامة من غير تهويل أو تزويق .. فقد شنت إنجلترا أكثر من حرب واحدة على الشعب الصينى الأعزل المسكين وذلك من أجل الفوائد التى يجنيها المتجرون فى هذه السموم وقد استولت إنجلترا عنوة على أرض صينية اغتصبتها اغتصاباً لكى تجعل منها مرفأ يعتصم به المهربون الذين لم يلبثوا أن اتسعت تجارتهم وتزايد نشاطهم برغم أنف السلطات الصينية . . . وحسب أى رجل إنجليزى أن يطالع هذه القصة لكى يدرك السبب فى أن الأجانب يحكمون على هذه البلاد بأنها ، مع ادعائها التمسك بالمبادئ السامية ، لا تسمح للاعتبارات الإنسانية أن تحول بينها وبين مطامعها » .

* * *

ومن المفيد أن نذكر أن المشاكل التى أثارتها تجارة الأفيون لها ناحية خاصة تتصل بالهند . فقد كانت الهند أكثر الأقطار إنتاجاً للأفيون ، وكان حكامها حريضين على أن يجدوا الأسواق الفسيحة لترويج هذه السلعة . كان هؤلاء الحكام أول الأمر تابعين لهيئة غير حكومية تسمى شركة الهند الشرقية إلى أن تسلمت الحكومة البريطانية منها مقاليد الأمور وبسطت سلطانها على الهند مباشرة . وفى كلا الحالين كان أولو الأمر فى الهند شديدى الحرص على زيادة إنتاج الأفيون وخلق أسواق ضخمة لاستهلاكه . وكان من نكد الدنيا على الشعب الصينى أن بلاده واسعة

مترامية الأطراف وأنها خير سوق للاتجار فى هذه العقاقير السامة المهلكة .

وكانت التجارة صغيرة محدودة لا تتجاوز المائتى صندوق فى العام إلى أوائل القرن الثامن عشر حين أخذ الإنجليز يدخلون الميدان فأخذت تنمو وتتزايد بسرعة هائلة حتى اضطرت حكومة بيكين إلى إصدار أول مرسوم يحظر الاتجار والاستهلاك لتلك السلعة،وكان ذلك فى عام ١٧٣٩ ، ثم توالت المراسيم بعد هذا،وبرغم ذلك ازدادت تجارة الأفيون انتشاراً وتضخماً .

وفى حوالى عام ١٧٧٣ أخذت شركة الهند الشرقية تشترك فى تجارة الأفيون عنوة بعد أن كانت التجارة مقصورة على أفراد وجماعات من التجار المستقلين . ولكى يتم لها تحقيق مأربها بالأسلوب البريطانى الاستعمارى المألوف ، نراها لا تألو جهداً فى إصدار القرارات والأوامر بتحريم الاتجار بهذه السلعة وإظهار ما تنطوى عليه من الوحشية وتنذر موظفيها بالطرد والمحاكمة إذا أقدموا على الاشتراك فى هذه التجارة .

كان لابد من إصدار هذه الوثائق وإعلانها للناس تمشياً مع الأسلوب الاستعمارى المطوى على النفاق والكذب . وفى الوقت نفسه عنيت الشركة عناية كبيرة بتشجيع تجارة الأفيون وتوسيع نطاقها وعملت على تخصيص مساحات واسعة من الأراضى الهندية لزراعته على ما فى هذا من الإضرار بمصالح الزراع بإهمال الغلات الغذائية . واتبعت الشركة فى ترويج تلك التجارة الوسائل التى يتبعها القراصنة فأعدت السفن السريعة المجهزة بالمدافع القوية وغيرها من أسلحة الهجوم

والتخريب حتى إذا اقتربت السفينة من شواطىء الصين انطلقت منها زوارق سريعة تحمل صناديق الأفيون فى حماية رجال مدججين بالسلاح .

لم يكن من المستغرب بعد هذا كله أن تزداد تجارة الأفيون نشاطاً واتساعاً . . . وأن يرتفع المهرب منه من ٢٠٠ صندوق فى عام ١٧٢٩ إلى ١٧٠٠٠ فى عام ١٨٣٥،وكانت هذه التجارة كلها فى أيدى جماعات من البريطانيين يعاونهم عدد من الأفاقين وبعض الصينيين الذين أغرتهم الرشوة بخيانة بلادهم . ولم يكن هؤلاء الرجال يتورعون عن الالتجاء إلى أفظع أساليب القرصنة والإجرام . فكان من المألوف أن يلجأوا إلى القتل وشن حروب صغيرة على الحراس والموظفين الصينيين إذا خطر لهؤلاء أن يقاوموا وأن يصروا على تنفيذ أوامر حكومة بيكين .

واستفحل الخطب وأخذت آثار هذه التجارة المهلكة تظهر فى الشعب الصينى فارتاعت لذلك السلطات العليا فى بيكين وأصدر الإمبراطور المراسيم الصارمة يحظر استيراد الأفيون،وهدد باتخاذ تدابير رادعة نحو مقترفى هذه الجريمة،وأبلغت الحكومة البريطانية أن الحالة تزداد خطراً فلم تحرك ساكناً ، وأرسل الإمبراطور مندوباً سامياً من طرفه إلى مدينة كانتون فى جنوب الصين حيث يكثر التهريب وأمره بأن يبذل كل ما فى وسعه لوقف تلك التجارة اللعينة . عين هذا المندوب المسمى لين فى عام ١٨٣٩ ومنحه الإمبراطور السلطة التامة لإتخاذ كل إجراء نحو أولئك القراصنة، ومع ذلك فإنه لم يرض أن يستخدم السلطة المخولة له فى تسرع

وعنف ،فكتب كتاباً يشرح فيه مأساة الاتجار فى الأفيون وما تجره على الشعب الصينى من الفساد والدمار ، ويلتمس أن تساعده حكومة بريطانيا فى وقف هذه التجارة ، والتمس بأن يرسل كتابه هذا إلى حضرة صاحبة الجلالة فكتوريا ملكة إنجلترة .

وأرسل الكتاب إلى الملكة العظيمة وظلت القرصنة على حالها . هنالك لم يجد المندوب السامى لين مفرًّا من أن يلجأ إلى الإجراءات الصارمة التى قد تؤدى إلى وقف تلك التجارة أو الإقلال من خطرها . وبعبارة أخرى اضطر المندوب السامى إلى أن ينفذ قوانين دولته وأوامر مولاه الإمبراطور التى لا غرض لها سوى حماية الشعب الصينى من تلك السموم الفتاكة التى توشك أن تورده موارد الدمار . من أجل ذلك حمل المندوب السامى حملة جريئة على مستودعات الأفيون التى كدسها القراصنة ، وأحرقها عن آخرها ثم ألقى القبض على عدد كبير من القراصنة ولم يفرج عنهم إلا بعد أن استكتبهم عهوداً بألا يعودوا إلى الاشتغال بتلك التجارة الدنيئة فأمضى كل منهم العهد كرهاً وهو مصمم أن يثأر أشد الثأر للخسارة التى لحقت به .

ولم يكد هؤلاء القراصنة أن يطلق سراحهم حتى تصايحوا بأن إهانات موهومة قد لحقت التاج البريطانى وأن شرف الملكة العظيمة قد تعرض للأذى ، فلم تلبث هذه الصيحات أن وجدت أذناً استعمارية صاغية ولم يمض إلا زمن وجيز حتى أرسلت الأساطيل والجنود المزودون بالمدافع والبنادق ، وأشهرت حرب شعواء على الشعب الصينى بدأت فى أواخر عام

١٨٣٩ ودامت إلى سنة ١٨٤٢ وكانت هذه هى حرب الأفيون الأولى .

كان الجندى الصينى فى ذلك الوقت بمثابة الجندى الأعزل، إذ لم يكن لديه بنادق ولا مدافع ولا أسلحة ذات خطر . فلم تكن الحرب التى أثارها الإنجليز من أجل حرية الاتجار فى الأفيون حرباً بالمعنى المألوف بل سلسلة من المجازر والمذابح، وكان الشهداء فيها هم أبناء الصين الذين كانت تحصدهم آلات التدمير والفتك حصداً، أما ضحايا الفريق المعتدى فتافهة لا تستحق الذكر .

كانت حرب الأفيون من ذلك الطراز العزيز على قلوب الإنجليز المحبب إلى نفوسهم . وهو الطراز الذى طالما مارسوه بعدذلك عشرات المرات فى آسيا وأفريقية ، حرب يقف فيها جيش بريطانى مدجج بالسلاح أمام جيش أعزل لا حول له ولا قوة، والنصر فيها مضمون سلفاً والهزيمة الساحقة واقعة لا محالة بالخصم الذى أبى أن يذعن صاغراً ذليلا .

فالشرط الأول فى هذا الطراز من الحرب هو أن الخصم ضعيف عاجز عن كل مقاومة . أما الشرط الثانى وهو لا يقل شأناً عن الشرط الأول فهو أن الغنيمة ضخمة والمكاسب الاستعمارية عظيمة ، فلم يكن الربح مقصوراً على رواج تجارة الأفيون ، بل هنالك أيضاً أقطار تغتصب وميزات محققة تجنى ونفوذ يتسع وشطر جديد من البسيطة يضاف إلى الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس . فليس فى الإمكان أن يتصور إنسان ربحاً عظيما نظير مجهود ضئيل ومكاسب ضخمة لقاء ثمن تافه ، مثل الربح والمكاسب التى حققتها بريطانيا بواسطة هذه الحرب التى

لم تبذل لها تضحية تستحق الذكر سوى تلك الاعتبارات الإنسانية التى لايقيم لها الاستعمار وزناً .

انتهت حرب الأفيون الأولى بهزيمة ساحقة لجيش الصين ثم دارت المفاوضات بين الطرفين وانتهت إلى شيء يسمى معاهدة نانكين . وبمقتضى هذه المعاهدات أبعد المندوب السامى المشاكس وامتلكت بريطانيا جزيرة هونج كونج القريبة من الساحل الجنوبى ومن ميناء كانتون ورفع العلم البريطانى على تلك الأرض ذات الموقع الاستراتيجى الخطير . ولا يزال هذا العلم يخفق على ربوعها إلى وقتنا هذا ، وكلفت حكومة الصين أن تدفع غرامات ضخمة للعدو المظفر وتعويضات مالية للتجار الذين خسروا أو ادعوا أنهم خسروا بضائعهم . . .

وقد رأت بريطانيا أن تحافظ على خطة الرياء القديمة فضمت المعاهدة نصاً يؤكد أن فى تهريب الأفيون خروجاً على القانون ، ولم يكن هذا القول جديداً ، ومع ذلك فإن معاهدة نانكين قد فشلت كأداة للسلم ، لتصميم البريطانيين على الاتجار بالأفيون بجميع الوسائل الممكنة . وقد أتاح امتلاك جزيرة هونج كونج للبريطانيين مركزاً شديد الملائمة لجمع الأفيون وتهريبه تحت الراية البريطانية . وبذلت جهود فى الوقت نفسه لكي توافق حكومة الصين على أن يكون استيراد الأفيون عملا تجارياً مشروعاً فكتب لورد بالمرستون إلى المندوب البريطانى فى الصين ، « بالسعى إلى عقد اتفاقات مع السلطات الصينية تسمح بدخول الأفيون إلى البلاد كسلعة من السلع

التجارية القانونية » ، وعرض هذا الاقتراح فعلا على الإمبراطور وطلب منه على سبيل الإغراء أن يفرض رسوماً جمركية عالية على الأفيون المستورد حتى تزيد موارد الدولة المالية ، فرد الإمبراطور بقوله : « لقد أكون عاجزاً عن منع هذه السموم أن تدخل بلادى بالرغم منى لأن فى الناس من تدفعهم شهواتهم وحبهم للمال الحرام إلى عصيان أمرى ، ولكن ليس فى العالم قوة تستطيع أن تغرينى بأن أستمد للدولة إيراداً من تسميم شعبى ونشر الرذيلة فيه » .

كان هذا هو الرد النبيل الحاسم الذى أدلى به إمبراطور الصين وما على القارئ إلا أن يقارن بين كلمات لورد بالمرستون الوزير المسيحى المتمدن وبين كلمات الحاكم الصينى المتأخر عن ركب الحضارة ، لكى يدرك إلى أى درك سافل ينزل الاستعمار بالنفوس البشرية التى تدعى لنفسها منتهى النبل والصلاح .

وهكذا كانت معاهدة نانكين وسيلة لازدياد التجارة المحرمة فى الأفيون ، وأعدت مستعمرة هونج كونج لإيواء التجار والمهربين والأفاقين ، وحصنت تحصيناً قوياً ، وأعدت فيها المستودعات لتخزين صناديق الأفيون ، ريثما تنقل بواسطة زوارق التهريب ، وهى زوارق متينة أعدت إعداداً خاصاً لأعمال القرصنة والتهريب واسمها لرتشا ، وكانت تزود بالأسلحة وتعطى رخصة رسمية من السلطات البريطانية فى هونج كونج حتى تؤدى وظيفتها تحت حماية الراية البريطانية . ولم يكن أصحاب هذه الزوارق كلهم من البريطانيين لأن اتساع التجارة والتهريب جعل من

الضروري إشراك آلاف من الناس من مختلف الأجناس وكثير منهم بالطبع من الصينيين أنفسهم ، وهؤلاء جميعاً لم يكونوا يتورعون عن الفتك بكل من يحاول منعهم من ممارسة حرفتهم الجهنمية أو يقيم فى وجههم أية صعوبة . وكثيراً ما أزهقت الأرواح وسفكت الدماء بواسطة هذه العصابات التى كانت تعمل دائماً تحت الراية البريطانية وبرخصة رسمية من السلطات البريطانية فى هونج كونج .

وقد كان نشاط هذه العصابات هو السبب المباشر فى حرب الأفيون الثانية التى بدأت فى عام ١٨٥٨ لأن الفترة التى انقضت بين الحربين لم تكن سوى فترة عدوان مستمر من السلطات البريطانية ومقاومة ضعيفة من السلطات الصينية ، وإن كانت الكراهية للأجانب عامة وللبريطانيين خاصة قد انتشرت بين سكان الصين حتى دفعهم اليأس إلى بعض المقاومة برغم عجزهم وضعفهم .

وقد صمم البريطانيون العزم على أن يرغموا حكومة الصين على أن ترفع الحظر عن استيراد الأفيون ، وإن دعا ذلك إلى حرب جديدة . وأخذوا ينتظرون أول فرصة سانحة تمكنهم من تحقيق مآربهم فأتاح لهم حادث الزورق المسمى أرو Arrow الفرصة المواتية ، وكان هذا الزورق يملكه بعض الصينيين ولكنه كان يحمل رخصة من السلطات البريطانية فى هونج كونج وترفرف عليه الراية البريطانية ، ومع أن هذه الرخصة قد نفدت مدتها ولم تجدد ، فإن هذا لم يمنع البريطانيين من أن يدعوا لأنفسهم حق

حمايته ورعايته . ولم تكن حال هذا الزورق تختلف كثيراً عن حالة مئات غيره .

ورأت السلطات الصينية أن الزورق « أرو» لا يعدو أن يكون واحداً من الزوارق التي تشتغل بتجارة محرمة ، بل تتجاوز أعمال القرصنة والتهريب إلى النهب والسلب والقتل والتخريب . وعيل صبرها مما يرتكبه أصحابه من الموبقات ، فقبضوا على الزورق وأصحابه وأودعوهم السجن .

وبديهى أن السلطات البريطانية كانت تنتظر مثل هذه الفرصة بفارغ الصبر فلم يكد يلقى القبض على الصينيين أصحاب الزورق حتى طلب المندوب السامى فى هونج كونج المسمى سير جون بورنج من السلطات الصينية أن تقدم إليه اعتذاراً رسمياًّ عما ارتكبت ، وأن تفرج عن المعتقلين وترد إليهم بضاعتهم ؛ ومع أن السلطات الصينية مدركة ما هى عليه من الضعف ومن العجز عن دفع العدوان ، فإن إحساسها بكرامتها اضطرها لأن ترفض هذا الطلب . وهذا ما كان يتوقعه البريطانيون . فأخذوا يمطرون البلاد الصينية والقرى بالقنابل ويخربون الدور والمنازل ، ثم احتشدت جيوشهم وأغارت على بلاد الصين . وقامت بذلك حرب الأفيون الثانية (١٨٥٦ — ١٨٥٧) . ولم يكن بد من أن تثور الحرب الثانية ، لأن حرب الأفيون الأولى لم تسفر عن الترخيص الرسمى بتجارة الأفيون وهو السبب الذي من أجله قامت الحرب فلم يكن بد من إثارة الحرب الثانية حتى يتحقق الهدف المنشود .

وقد أسفرت هذه الحرب عن هزيمة الصين كما حدث فى الحرب

الأولى؛ وكان من أهم نتائجها اتساع مستعمرة هونج كونج بحيث لم تعد مقصورة على الجزيرة المواجهة للشاطئ بل على قسم كبير من الإقليم الساحلى المجاور لها . وبذلك أصبحت المستعمرة متصلة اتصالاً مباشراً ببلاد الصين ، لا تحول بينهما مياه البحر الضيق كما كانت الحال من قبل .

وبديهى أن مستعمرة هونج كونج وامتدادها من الجزيرة إلى القارة يجعل مكافحة التهريب فى حكم المستحيل . ومع ذلك فإن البريطانيين كانوا حريصين على ألا تكون تجارة الأفيون مجرد تهريب ، وقد كان الغرض الأساسى من الحرب كلها أن تباح التجارة فى هذه السلعة الثمينة ، بحيث تغدو عملا مشروعاً . ويسّر لهم انتصارهم فى الحرب أن يكرهوا الدولة على أن تصدر أمراً يبيح استيراد الأفيون ويفرض ضريبة على المستورد منه . وكان ذلك فى عام ١٨٥٨ . ومنذ ذلك التاريخ أصبح تسميم الشعب الصينى عملا مباحاً يقره القانون والنظام ، إلى أن نهض الشعب الصينى نهضته الحديثة فى أوائل هذا القرن ؛ وكان للإنجليز مصالح أخرى غير تجارة الأفيون ، فأصدرت حكومة الصين مرسوماً فى سنة ١٩٠٦ يقضى بحظر تعاطى الأفيون أو زراعته أو الاتجار به . ولم يشأ الإنجليز أن يعترضوا على هذا المرسوم خوفاً على مصالحهم العديدة التى أصبحت أعظم خطراً وأوفر ربحاً من الأفيون وتجارته وخوفاً مما يثيرونه من السخط لدى الشعوب والأمم التى أخذت ترسل البعثات إلى الصين وتطلع على ما يجرى فيها من الشئون ، ومن هذه الأمم من يخشى الإنجليز جانبهم مثل الأمريكيين .

هذه قصة حرب الأفيون التى ليس لها فى الحروب مثيل – والتى لولا الوثائق الرسمية التى تشهد بصحة كل جزء منها ، لظن الناس أنها حديث خرافة ، أو أن فى الحديث غلوًّا كبيراً . والحقيقة أن حرب الأفيون – على بشاعتها ووحشيتها وبعدها عن أبسط معانى الإنسانية – لا تعدو أن تكون حلقة فى سلسلة من نظائرها من الأعمال الاستعمارية . ومن قبل حرب الأفيون بقرون انهمك الإنجليز فى تجارة الرقيق ، فكانت سفنهم وعصاباتهم تغير على سواحل أفريقية الغربية وتختطف السكان الآمنين مجموعات مختلفة ، فيها الشيخ الهرم والعجوز الشمطاء والشبان والشابات والصبية والرضّع والنساء الحوامل ، تشحن كلها فى بطون السفن ، ثم تباع فى أسواق الأمريكتين كما تباع السلع . وقد عكف الإنجليز على هذه التجارة التى احتكروها عدة قرون وجمعوا منها الثروات الطائلة واستخدمت هذه الثروات فى بناء الأساطيل وتموين المصانع ، وبناء تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبعد أن شبعت البطون البريطانية ، وأتخمت من تجارة الرقيق أخذ أصحابها ينادون بأنها تجارة وحشية ، وعمل مناف للإنسانية ، وأخذوا يفخرون بأنهم أول من ألغى الاتجار بالعبيد .

ومع ذلك فإنهم انغمسوا فى تجارة الأفيون فى الوقت الذى كانوا يحرمون فيه الاتجار فى الرقيق ، لأن الضمير الاستعمارى ضمير مرن – قابل للتمدد فى موضع والانكماش فى موضع آخر – تبعاً للظروف والأهواء ، والمتتبع لأحداثه لا يرى فرقاً كبيراً بين طارفه وتليده وقديمه وجديده .

وبعد فإن الاتجار فى الأفيون أصبح محرماً فى الصين ، غير

أن العادات الشريرة متى انتشرت فى قطر من الأقطار تعذر استئصالها ، وظلت شرورها قائمة زمناً طويلاً ، وستظل آثار الجريمة باقية دهراً طويلاً .

لقد أصبح الإنجليز يتجنبون ذكر حرب الأفيون ما وسعهم ذلك . ولن يجد المتصفح لدائرة المعارف البريطانية حرباً بهذا الاسم ، ولا يجىء ذكرها فى هذا المجلد الضخم إلا بإيجاز عند الكلام على تاريخ الصين ، ولا بد لمن يريد دراسة هذه الحرب الاستعمارية العجيبة أن يرجع إلى مؤلفات الأمريكيين[١] أو غيرهم من الكتاب غير البريطانيين .

غير أن الإنجليز إذا حاولوا اليوم التهرب من ذكر حرب الأفيون لبشاعتها ، فإنهم لا يتهربون من المنافع التى اقتبسوها من هذه الحرب ، فقد أمكنهم أن يحصلوا على نصيب كبير من تجارة الصين بوجه عام ، وعلى احتكار كثير من مواردها ، وإذا كانوا فقدوا بعض ممتلكاتهم فى شمال الصين ، فإنهم لا يزالون يعضون بالنواجذ على مستعمرة هونج كونج ، وهى على كل حال من أعظ الثمرات التى جناها البريطانيون من حرب الأفيون .

---

(١) راجع مثلا الكاتب الأمريكى Morse فى كتابه عن العلاقات الدولية الصين (١٩١٨) .

٦

أمرتسار مثال لوحشية الاستعمار

الوحشية اصطلاح يستخدمه الكتاب للدلالة على أعمال أو جرائم فظيعة يرتكبها الإنسان . ومن الظلم للوحوش الضارية أن يستعار اسمها وصفاً لتلك الجرائم ، لأنها مهما بلغت ضراوتها من العنف والبطش ، عاجزة عن أن تضاهى ما يرتكبه الإنسان المتمدن المزود بأسلحة جهنمية للبطش بأخيه الإنسان . ومعلوم أن الضوارى تفتك وتقتل بدافع الجوع أو رد العدوان ، أما الإنسان المتمدن فيقتل ويفتك من أجل السيطرة والتحكم فى الإقليم وفى سكانه .

وهو قلما يلجأ إلى الأساليب المتناهية فى الوحشية إلا إذا آنس فى الشعب يقظة وانتباهاً للمطالبة بحقوقه ، ورأى هذا الوعى السياسى يهدد السلطان الاستعمارى ويحاول التخلص من نيره وأغلاله . لذلك نرى هذه الوحشية قلما تظهر إلا فى البلاد ذات الحضارة القديمة مثل الهند أو مصر ، لأن شعوب هذه البلاد جديرون أن يحسوا ثقل السلاسل والأغلال ، وأن تعاودهم ذكرى مجدهم القديم فتأبى عليهم عزتهم القومية طول الخضوع والإذعان . أما الشعوب التى لا تزال على الفطرة فقلما تدعو الحال إلى استخدام أفظع وسائل الوحشية لإذلالهم وإخضاعهم .

غير أن الأساليب الوحشية . إذا كانت تستخدم فقط فى ظروف

وأحوال خاصة ، فإن الالتجاء إليها بطريقة آلية — عند ما تسنح تلك الظروف — دليل قاطع على أن الوحشية كامنة فى الطبع الاستعمارى ، ومتأصلة فى نفوس الاستعماريين ؛ مثلها كمثل السم الكامن فى فكى الأفعى لا يكشف عنه إلا الظروف التى تدعو إلى استخدامه . وإذا أردنا أن نعرف الطبع الاستعمارى على حقيقته ، فليس يجدينا أن نلتمسه فى أوقات الهدوء والاستقرار ، بل الواجب أن نبحث عنه فى وقت الأزمات السياسية التى تنشأ بسبب نهضة وطنية ، يحاول أصحابها أن ينالوا حظا — ولو ضئيلا — من الحرية والاستقلال .

لهذا كانت حوادث البنجاب فى الشمال الغربى من الهند مثالا حسناً لدراسة الطبع الاستعمارى على حقيقته . ونظراً لأن الوحشية ظهرت بأكمل مظاهرها فى بلدة أمرتسار ، صار حديث هذه البلدة خير مثال يضربه الكتاب دليلا على تلك الأساليب التى يلجأ إليها الاستعمار لإخضاع الشعوب وإذلالها .

جرت هذه الحوادث فى ربيع سنة ١٩١٩ وأرادت حكومة الهند أن تخفى حديثها عن العالم فكتمت أمرها فترة من الزمن ، غير أن رائحة الفظائع أبت إلا أن تفوح وتنتشر ، فتحدث بشأنها الناس فى دهشة واستنكار ، واضطرت حكومة لندن لأن تؤلف لجنة تحقيق « ملكية » لبحث ما سموه « الاضطرابات » وما تخللها من الأحداث . وقد نشر تقرير هذه اللجنة فى كتاب أزرق اعتمدنا عليه كل الاعتماد فى دراسة وقائع تلك الأزمة ، حتى يكون الكلام مبنياً على الوثائق الرسمية ، مع أنها فى الأرجح ، تبطن

أكثر مما تظهر ، وتخفى أكثر مما تعلن ، ولكن فيما أعلنته ما يكفى لتحقيق ما نريد تحقيقه هنا ، وهو الكشف عن خصائص الطبع الاستعمارى .

* * *

كان المسرح الرئيسى لما سموه « الاضطرابات » فى ربيع سنة ١٩١٩ ، هو الإقليم الشمالى الغربى من الهند ، وعلى الأخص إقليم البنجاب. وقد بدأت هذه الاضطرابات فى عاصمة الهند « دلهى » فى ٣٠ من مارس ، ثم تجددت فى لاهور وأمرتسار فى البنجاب فى ١٠ من أبريل ، وكذلك فى أحمد أباد (وطن الزعيم غاندى) ، وهى فى شمال مديرية بومباى ، وكذلك حدثت اضطرابات فى أماكن عديدة أصغر حجماً ، ومعظمها فى ولاية البنجاب .

ولاهور هى عاصمة البنجاب ، وقد أصبحت الآن داخلة فى دولة باكستان ، وسكانها ــ وقت الحوادث التى نحن بصددها ــ يبلغون ربع مليون من الأنفس ، ويزيدون على هذا الرقم كثيراً فى الوقت الحاضر.

أما أمرتسار فتقع شرقى لاهور بنحو ٢٠ ميلا ، وسكانها فى ذلك الوقت نحو ١٦٠,٠٠٠ نسمة . ويزدادون على هذا الرقم كثيراً أيام المولد والأسواق ، كما حدث فعلا فى يوم ١٣ أبريل المشئوم ، وهى الآن واقعة فى حدود دولة الهند برغم قربها من باكستان . وهى فوق ذلك عاصمة السيخ ومركز تجارى ذو شأن .

وأمرتسار مدينة قديمة ، تحيط بها أسوار فى بعض المواضع ،

وأكثر شوارعها ضيقة ، وفيها عدد محدود من الميادين ، مثل ميدان جلينولاباغ ، الذى اشتهر فى حوادث ذلك الوقت ، أما معظم الإدارات ومراكز البوليس والجيش فواقعة خارج المدينة من الناحية الشمالية ، فى حى مستقل ، كعادة البريطانيين فى حكم كثير من المستعمرات [1].

أما أحمد أباد فمدينة عظيمة ، إلى الشمال من بومباى بنحو مائتى ميل ، وهى مركز كبير لصناعة الغزل والنسج ، وبالقرب منها ولد الزعيم غاندى ، وكانت أول مراكز الدعاية للمقاومة السلبية .

انتشرت الحركات الوطنية فى هذه البلاد وفى غيرها من جهات الهند ، وقوبلت من السلطات الحاكمة بالقمع الوحشى ، ولكن مظاهر الوحشية كانت أشد فى البنجاب أكثر من سواها ، وكانت فى أمرتسار أفظع منها فى أى بلد آخر ، ولذلك سنكتفى بها كمثال للأساليب التى تتخذها السلطات الاستعمارية لإخماد الحركات الوطنية ، وقد أعلنت الأحكام العرفية — أول ما أعلنت — فى يوم ١٥ أبريل سنة ١٩١٩ ، فى كل من لاهور وأمرتسار ، ثم انتشرت بعد ذلك فى جهات أخرى ، واحتج البريطانيون بحرب الأفغان لإطالة مدة الأحكام العرفية فترة طويلة من الزمن .

وترجع أسباب الحركة الوطنية التى ظهرت فى صورة قوية فى ربيع سنة

---

(١) يلاحظ أن البريطانيين اتبعوا هذا النظام فى السودان أيضاً . فنرى فى بلدة الأبيض منطقة خاصة للحكام وكبار الموظفين والإدارات وهذه المنطقة منعزلة تماماً عن المدينة يفصلها مساحة مزروعة شجراً ولكل من البلدة ومنطقة الحكومة مورد خاص بالمياه مستقل .

١٩١٩ إلى عدة عوامل نلخصها فيما يلى :

١ — فى الحرب العالمية الأولى استخدمت بريطانيا جميع موارد الهند فى المال والرجال ، فجندت مئات الآلاف من الرجال وأنفقت مئات الملايين . وقد جندت من البنجاب وحدها ٤٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وهو رقم يزيد على المجندين من سائر جهات الهند ، ولم يكن بد من أن تتورط بريطانيا — كعادتها فى بذل الوعود — بإصلاحات دستورية تعطى الهند حظًّا وافراً من الحرية والاستقلال ، فاحتمل السكان بصبر وجلد ما فرضته الحرب من ضروب الشدة والحرمان ، ثم انتهت الحرب بانتصار باهر لبريطانيا وحلفائها ، وانقضت الأشهر دون أن يرى أبناء الهند أقل مظهر يشير إلى اعتزام البريطانيين أن يفوا بوعودهم .

٢ — أصدر البريطانيون أثناء الحرب قانوناً يسمى قانون الدفاع عن الهند ، يمكن الحكومة من اتخاذ ما تراه من إجراء لضمان الهدوء واستتباب النظام ، ولم تكتف بهذا بل سنت فى شهر فبراير سنة ١٩١٩ قانوناً جديداً سمى باسم مؤلفه قانون راولات Rowlatt Act ، وهو يعطى الحكام فى جميع الأقاليم سلطات واسعة للقبض والمصادرة وغيرهما من وسائل التعسف ، وقد انتقد سكان الهند هذا القانون نقداً مرًّا ، واحتجوا على إصداره بعد انتهاء الحرب ، ولكن اعتراضاتهم ذهبت عبثاً .

٣ — وفى نفس الوقت تقريباً أرسل الزعيم غاندى نداءه المشهور ، داعياً إلى المقاومة السلبية والامتناع عن التعاون مع السلطات القائمة فى الهند

واستجاب الناس لدعوته فى مختلف أنحاء الهند . ومع أن غاندى كان ينشد السلم ويقاوم كل مظاهر العنف ، حتى إن الفضل الأكبر يرجع إلى جهوده فى إخماد الفتنة فى أحمد أباد وغيرها من الجهات — فإنه برغم ذلك ، عند ما أراد السفر فى شهر مارس سنة ١٩١٩ إلى العاصمة دلهى ، منعته السلطات من السفر ، وألزمته أن يبقى فى ولاية بومباى . ولا شك أن هذا الحد من حرية غاندى كان له أسوأ الأثر عند مواطنيه وأنصاره ، ويرى الكثير أن هذا كان سبباً من أهم الأسباب فى إثارة الاضطرابات فى مختلف الجهات .

وحسبنا هنا أن نسرد ما حدث فى أمرتسار .

فقد كان فى هذه المدينة رجلان من أنصار غاندى هما الدكتوران كتشلو وساتيا پال ، أصدرت السلطة إليهما أمراً بألا يخطبا فى أى مجتمع أو ناد ، وقد امتثلا لهذا الأمر ، ولكن الإدارة فى المدينة زعمت أنهما — وإن امتنعا عن الخطابة — يستقبلان فى دارهما زواراً من شباب المدينة ، ويبثان فيهم روح الثورة والتمرد . ولذلك صدر الأمر بإبعادهما إلى بلدة بعيدة ، ونفذ هذا الأمر فى جنح الليل وأفاق أهل المدينة فى صباح يوم ١٠ أبريل سنة ١٩١٩ فعلموا أن الزعيمين قد أبعدا عن المدينة ، فهاجت الخواطر لذلك وتألفت مظاهرة فى أثناء النهار ، وأخذت تجوب المدينة ، ثم أجمع المتظاهرون على أن يذهبوا إلى دار نائب المفتش (وهو الحاكم الرسمى للمدينة) لكى يطلبوا منه الإفراج عن الزعيمين وردهما إلى بلدهما ، ومن المحقق أن المظاهرة كانت سلمية ولم يكن مع المتظاهرين أسلحة أو عصى .

كان لا بد للمتظاهرين أن يتجهوا إلى شمال المدينة . وأن يخرجوا من بابها الشمالى المسمى باب هول ، لكى يصلوا إلى منطقة الحكام وإلى ديوان نائب المفتش . فتصدى لهم على الجسر الذي يفصل تلك المنطقة عن المدينة قوة من رجال الشرطة وأرادت أن تردهم على أعقابهم ، وأطلقت أعيرة نارية فى الهواء ، فهاج المتظاهرون ، واستعان رجال الشرطة بفصيلة من الجيش ، وأطلقت النيران ، وأصيب واحد من المتظاهرين فى المصادمة الأولى ، ثم أصيب وقتل آخرون فى المصادمات الثانية ، وانتهى الأمر بارتداد المتظاهرين إلى المدينة ، ولكنهم انقلبوا بعد ذلك إلى جموع ثائرة ، بعد أن كانوا يؤلفون مظاهرة سلمية .

لم تكن الأحكام العرفية قد أعلنت بعد ، إذ لم تعلن فعلا إلا فى يوم ١٥ أبريل ، ومع ذلك فإن السلطات المدنية بادرت بالالتجاء إلى الجيش ، وأسلمته قيادة الأمور فى المدينة ، وطلبت منه أن يتولى المحافظة على الأمن والنظام ، وأن يكون وحده مسئولا عن ذلك ، وبذلك تخلت السلطات المدنية عن كل إشراف ، وأسلمت الأمور إلى هيئة لا تكاد تعرف عن السكان وأعمالهم شيئاً ، وهكذا تسلم زمام الأمور قائد بريطانى اسمه (جنرال داير Dyer) بطل أمر تسار الشهير .

انقضى يوم ١١ و ١٢ أبريل فى مظاهرات صاخبة وخطب واحتجاجات ، ولم يكن بد من أن يتخللها بعض أعمال العنف ، بعد أن قتل من السكان من قتل ، وقد ذهب ضحية هذه الاضطرابات اثنان أو ثلاثة من البريطانيين ، وهوجمت بعض المنشآت الحكومية

وكان كثير من المظاهرات يبدأ باجتماع فى بعض الميادين ، وعلى الأخص فى ميدان جلينولاباغ .

ثم جاء يوم ١٣ أبريل ، وهو يوم « مولد البيزخى » يؤم المدينة فيه أنواع من الناس من القرى والبلدان المجاورة لأمرتسار ، فتزدحم المدينة ، ولا شك أن معظمهم يقصدها للبيع والشراء ، وقد يجتمعون فى الميادين بمحض الصدفة ، دون أن تكون لديهم نية التظاهر أو أى نشاط سياسى .

ورأى القائد الجنرال أن يتخذ إجراء حاسماً فى هذا اليوم بالذات ، لمنع المظاهرات وقمع الاضطرابات بمنتهى الشدة والعنف إذا دعت الحال إلى ذلك — فنزل إلى المدينة على رأس قوة من الجنود بين هنود وبريطانيين ، وأصدر منشوراً بمنع المواكب والمظاهرات فى أى جزء داخل المدينة أو خارجها . وكل اجتماع يتألف من أربعة أشخاص أو أكثر يعد اجتماعاً غير مشروع ، ويفرق بقوة السلاح إذا لزم الأمر .

وقد أشرف الجنرال نفسه على إذاعة هذا المنشور . وكانت طريقته فى إذاعته أن يأمر بضرب الطبل فى مكان ما ، فيجتمع بعض الأهالى فيقرأ عليهم النص باللغة الوطنية ، كما وزعت نسخ قليلة مطبوعة ، ولكن لم تعلق منه نسخ فى أى مكان ، وكانت إذاعته بالطريقة المذكورة مقصورة على جهات محدودة من المدينة ، بعيدة عن الميادين ، التى جرت العادة أن تعقد فيها الاجتماعات ،وفى ميدان جلينولاباغ لم تعلق نسخة فى أى مكان بالميدان أو بالقرب منه .

وبعد أن أعلن القائد منشوره هذا بطريقته الخاصة ، عاد فى الساعة

الواحدة بعد الظهر إلى مركز قيادته خارج المدينة ، حيث أبلغه أعوانه أن المواطنين سيعقدون اجتماعاً فى الساعة الرابعة والنصف فى ميدان جلينولاباغ . وبديهى أن هذا الاجتماع قد تقرر عقده فى اليوم السابق ، قبل أن يصدر الجنرال منشوره بمنع الاجتماعات . ولا شك أن الاجتماع سيضم فى مثل هذا اليوم مئات أو آلافاً من سكان القرى والبلدان المجاورة ، الذين لايعرفون شيئاً عن المنشور ، بل قد لاتكون لهم صلة بالحركة الوطنية .

غير أن القائد لم يعبأ بهذه الاعتبارات ، ورأى أن فى هذا الاجتماع تحدياً لأوامره ، ولا بد له أن يضرب ضربة قاسية تعطى السكان درساً فى الطاعة لأوامره والإذعان لإرادته .

وعند ما اقتربت الساعة الرابعة أرسل القائد فرقاً من الجنود فى مختلف أنحاء المدينة للمحافظة على النظام ، واصطحب هو خمسين جندياً مزودين بالبنادق ، وبعض السيارات المصفحة المزودة بالمدافع الرشاشة ، وعلى رأس هذه القوة اتجه نحو ميدان جلينولاباغ ، فرأى الناس محتشدين فى الميدان . وقدر هو عددهم بنحو ٦٠٠٠ رجل ، وإن كان بعض الشهود قدر العدد بنحو ١٥,٠٠٠ ، وكان فى جانب من الميدان دكة وقف عليها شخص يلقى خطاباً وقد التف حوله الناس .

أراد القائد أن يدخل الميدان بسياراته المصفحة حتى يستطيع استخدام المدافع الرشاشة فى الفتك بالمجتمعين ، غير أن الزقاق المؤدى إلى الميدان كان من الضيق ، بحيث اضطر القائد — لسبب خارج عن إرادته — أن يترك السيارات والمدافع الرشاشة بعيداً ،

وأن يكتفى بالخمسين جنديًّا ، المزودين بالبنادق وبنحو ١٦٨٠ طلقة .
قسم القائد جنوده الخمسين إلى قسمين ، عن اليمين وعن الشمال عند مدخل الميدان ، حيث الأرض مرتفعة تساعد على تسديد المرمى والإصابة . ولعل المتظاهرين لم يحسوا قدوم القائد ، لأن باب الميدان الذى دخل منه كان يبعد عن مكان الاحتشاد بنحو مائة متر .

ورأى القائد أن يبادر بالفتك بالمجتمعين ، ولذلك لم يرسل إنذاراً أو أمراً بالتفرق ، ولم يطلق طلقة واحدة فى الهواء ، بل تولى بنفسه توجيه الضرب إلى الجهات المزدحمة ، حتى يكون من المتعذر إخطاء المرمى ، وحتى يمكن الانتفاع بجميع الطلقات فى الفتك بالجمهور المحتشد . لذلك لم يكد يصل إلى الميدان حتى بدأ بإطلاق النار ، وكان المجتمعون عزلا من كل سلاح حتى العصى ، وكانت منافذ الميدان ضيقة فتزاحم الناس للهرب منها . فكان القائد يوجه النيران إليهم حيث يتكاثرون للخروج ، وقد اعترف أمام لجنة التحقيق أن غرضه لم يكن تفريق الاجتماع ، بل إلقاء الخوف والرعب فى النفوس ، لكى يعلم الناس درساً لا ينسونه أبداً ، ولذلك لم يكن يعنيه أن يفكر هل فى المكان أناس أبرياء ؟ بل كل ما يعنية أن يشيع الخوف والذعر ، لذلك استمر يأمر بإطلاق النار حتى نفدت آخر رصاصة لدى الجند ، وكان أسفه شديداً لأنه لم يستطع الانتفاع بالمدافع الرشاشة حتى يكون الفتك أعظم والضحايا أكثر .

وبعد عشر دقائق انتهت المجزرة التى ذهب ضحيتها ٣٧٩ من القتلى وثلاثة أمثالهم من الجرحى مما يدل على حسن تسديد الرماية ،

لأن كل طلقة تقريباً كانت لها ضحيتها الخاصة .

وترك القائد القتلى فى الميدان ، والجرحى يعانون الآلام ، دون أن يأمر باتخاذ أى إجراء لرفع جثث الأولين وإسعاف الآخرين . وخوطب فى ذلك فقال إن المستشفيات مفتوحة فليذهب إليها من يشاء .

هذه هى قصة مذبحة جلينولاباغ ، كما رواها القائد نفسه للجنة التحقيق ، ليس فيها أقل إسراف أو حشو . فقد كانت نيته أن يلقى درساً على الجماهير ، لا فى أمرتسار وحدها بل فى سائر البنجاب ولولا قلة الجنود عنده وتعذر استخدام المدافع الرشاشة لكان الدرس أنكى وأبلغ . وقد اعترف بأن ما قام به هو أقل ما يمكن عمله لكى يحقق الغرض الذى رمى إليه .

ليس فى تاريخ الجنرال داير أو فى أخلاقه المعروفة ما يدل على أنه شخص شاذ ، بل هو أداة من أدوات الاستعمار التى تستخدم فى تثبيت أقدام الحكم الأجنبى ولو أتيحت لغيره الظروف نفسها لما عمل خلاف الذى قام به ذلك القائد .

وهناك أمر آخر قام به الجنرال نفسه ، قد يبدو غريباً لأول وهلة ، ولكنه متفق تماماً مع العقلية الاستعمارية التى كانت تتحكم فى شئون الهند .

وخلاصة هذا الأمر أن سيدة إنجليزية تشتغل بالتبشير اسمها مس شروود ، كانت تسير فى أحد الشوارع راكبة دراجة فمرت بها مظاهرة ولعلها أثارت حنق الجماهير ، فاعتدى عليها وخرت على

الأرض فى حالة تشبه الإغماء . وجاء بعد ذلك بعض الهنود فاحتملوها وأوصلوها إلى المستشفى حيث لقيت العناية اللازمة وعادت إليها العافية .

كان من الجائز أن يرى الجنرال أن هنوداً ارتكبوا إثماً ، وهنوداً محوا آثار هذا الإثم ، فمن الممكن غض النظر عن الحادث . غير أن عقل الجنرال الاستعمارى رأى أنه لا بد من إلقاء درس خاص على الهنود . فأصدر أمراً أصبح يطلق عليه اسم « الأمر بالزحف على اليدين والرجلين » وخلاصة هذا الأمر أن كل هندى يمر من الشارع الذى اعتدى فيه على مس شروود (وهو شارع ضيق طويل) . يجب عليه أن يمشى على يديه ورجليه ثم لم يكتف بإصدار الأمر بل بث الجنود المسلحين على طول ذلك الشارع لتنفيذ هذا الأمر العجيب .

وقد صدر هذا الأمر فى يوم ١٩ أبريل ، بعد أن أعلنت الأحكام العرفية بأربعة أيام .

ومع ذلك فإن هذا الأمر الذى يبدو غريباً لأول وهلة ، لا يكاد يختلف عن الأساليب التى اتبعها آخرون من البريطانيين نحو الهنود . مثال ذلك أن ضابطاً مكلفاً بالإشراف على عمال النقل فى السكة الحديدية أصدر أمراً إلى العمال بأن يكون سلامهم أو « التعظيم » الذى يقدمونه لرئيسهم البريطانى أن يخروا له ساجدين ويضعوا وجوههم على الأرض [1] . وقد كان هؤلاء العمال مكلفين بنقل شحنة من الجير فكان الجير يغطى

(١) راجع ص ٨٥ من تقرير لجنة التحقيق الصادر فى سنة ١٩٢٠ رقم ٦٨١ Cmd

وجوههم وأجسامهم فإذا خر أحدهم ساجداً للرئيس البريطانى والعرق يتصبب من وجهه ترك السجود أثراً أبيض على الأرض . فذهبت الشائعات بأن الإنجليز يكلفون العامل الهندى أن يرسم بأنفه رسوماً بالجير على الأرض فأنكر المشرف الإنجليزى هذه التهمة ، وقال إن كل ما فى الأمر أنهم حين يأخذون « التعظيم » ويضعون جباههم على الأرض ، تترك عليها آثاراً من الجير .

والظاهر أن لجنة التحقيق رأت هذا التفسير مقبولا ، وعلى الأخص لأن كثيراً من هؤلاء العمال كانوا من المسجونين الذين يسخرون لبعض الأعمال خارج السجن واتخاذهم « التعظيم » على هذه الطريقة ليس بالأمر المستغرب .

وبمناسبة الكلام عن السلام والتعظيم نذكر أن الأوامر صدرت لجميع الهنود بأنه « نظراً إلى أن كثيراً من الهنود لم يعودوا يظهرون نحو الضباط والموظفين البريطانيين ما هو جدير بهم من الاحترام والتعظيم ، ونظراً لأنه لا بد من وضع حد لهذه الحالة التى تخل بما يجب لهؤلاء من واجبات التكريم ، فإننا أمرنا جميع السكان بأن يأخذوا التعظيم اللازم باليد كلما قابلوا أحد أولئك الضباط أو الموظفين وأن ينزلوا عن دراجاتهم أو الدواب التى يركبونها وأن يخفضوا المظلات التى يحملونها بأيديهم ، إذا كانت بأيديهم مظلات .

ومن أعمال التعسف التى تتصل بالتسليم والتعظيم ما اتخذ من إجراءات نحو طلاب المدارس والكليات . فقد ثبت للحكام أن

بعض التلاميذ الذين لا يتجاوز عددهم الخمسين ، قد اشتركوا فى المظاهرات فى بعض البلاد وعلى الأخص فى لاهور . فصدر الأمر بمعاقبة جميع طلاب المدارس الذين تزيد سنهم على ١٤ سنة ، بأن يكلفوا الحضور أربع مرات كل يوم فى هجير شهر مايو إلى مقر الضابط المشرف على الإدارة العسكرية ، ثم يمروا فى طابور منتظم أمام نقطة رفع فيها العلم البريطانى ، ويأخذوا له « التعظيم » اللازم . وقد دام هذا العقاب أسبوعاً كاملا وكان التلاميذ يقطعون كل يوم ١٦ ميلا فى الحر الشديد لتأدية هذا الواجب . ومن المضحكات المبكى أنه إذا تغيب أحد التلاميذ لسبب من الأسباب كلف والده أو ولى أمره أن يحل محله [١] .

ويطول بنا الحديث إذا ذكرنا جميع أعمال البغى والعنف والتعسف التى التجأت إليها السلطات البريطانية ، خصوصاً بعد أن أتاح لهم إعلان الأحكام العرفية الفرصة لأن يطلقوا لخيالهم العنان فى استنباط مختلف وسائل التنكيل والتعذيب مع الإفراط فى ذلك إفراطاً لا تبرره الظروف ، وكثير من الأوامر التى صدرت فى ظل تلك الأحكام ، لا يراد به إلا الإذلال للشعب عامة يستوى فى ذلك المذنب والبرىء . فقد صدرت أوامر بمصادرة سيارات الهنود بحيث لا يركب سيارة سوى البريطانيين ، كما أسرفت السلطات فى توقيع عقوبة الجلد على الأبرياء . وأغرب مثل لذلك ما قام به الجنرال داير فى أمرتسار إذ نصب « نقطة » للجلد على قارعة

---

(١) ص ١٢٤ من التقرير المذكور .

الطريق فى المكان الذى سقطت فيه المبشرة مس شرود. وأخذ يجلد الأبرياء الذين لم تكن لهم قل صلة بالعدوان على تلك المبشرة ، يجلدهم جهرة وسط الطريق فى وضح النهار .

* * *

إن بعض الطباع تظل كامنة فى النفس حتى تكشف عنها الظروف الملائمة لظهورها . فإذا أردنا ن نعرف طبيعة الخلق الاستعمارى على حقيقته ، وما ينطوى عليه من الوحشية فإننا لن نعلم ذلك إلا إذا كشفت عنه حركة وطنية فى ظروف كالتى رأيناها تتمثل فى بلاد الهند فى ربيع عام ١٩١٩ .

ولا بد لنا أن نشير إلى ختام هذه القصة والإجراءات التى أوصت بلجنة التحقيق الملكية باتخاذها ، فقد أوصت تلك اللجنة حكومة الهند بإيقاع بعض الجزاءات على الذين تجاوزوا الحد فى تنفيذ السلطة التى خولت لهم .

وأوقعت حكومة الهند الجزاءات على عدد محدود من الأفراد وهى لا تعدو اللوم والتوبيخ والنقل من مكان إلى آخر.

أما الجنرال داير فقد اضطرت حكومة الهند لأن توقع به أكبر العقوبات وهو العزل من منصبه فى الهند ، وذلك لأن حديث أمرتسار قد شاع وملأ صحف العالم، فلم يكن هناك مندوحة عن اتخاذ القرار الهائل .

ولكنه لم يكد يعزل من منصبه حتى فتحت جريدة مورننج بوست — وهى من صحف لندن الاستعمارية التى كانت تصدر

فى ذلك الوقت — باب الاكتتاب لمساعدة القائد العظيم العذى أحرز هذا النصر الباهر فى ميدان جلينولاباغ . فلم تمض أيام على فتح باب التبرع حتى اكتتب الشعب البريطانى الوفى لابنه المخلص بمبلغ خمسين ألفاً من الجنيهات . وهو مبلغ يعد فى ذلك الوقت ثروة طائلة . فإذا كانت الحكومة البريطانية قد أنكرت خدمات هذا البطل الوفى ، فإن شعب بريطانيا لن ينسى له هذه الخدمات .

الاستعمار الصهيونى

ماضيه وحاضره ومستقبله

إن الاستعمار الصهيونى – الذى تمكن أخيراً من إقامة دولة صهيونية فى قلب الوطن العربى – هو نوع جديد من الاستعمار يختلف كل الاختلاف عن الأنواع المألوفة المعروفة . فقد تعودنا أن يقوم الاستعمار بواسطة دولة قوية تسندها الجيوش والأساطيل ، أما الصهيونيون فقد اعتمدوا أولا على جيوش وأساطيل غيرهم قبل أن تكون لهم قوة تستحق الذكر . وأمكنهم أن يستخدموا الاستعمار البريطانى وأن يسخروه لقضاء مآربهم ، حتى إذا حصلوا على أقصى مرادهم منه تحولوا إلى تسخير النفوذ الأمريكى واستغلاله فنجحوا إلى أبعد غايات النجاح.

وقد أصبح الاستعمار الصهيونى أكبر خطر يتهدد العالم العربى لذلك كان جديراً بنا أن ننعم الفكر فى أمره وأن ندرسه ونطيل دراسته .

من أول الصيحات الصهيونية التى سجلها التاريخ كتاب أرسله يهودى فرنسى فى عام ١٧٩٨ (وقت حملة بونابرت على الشرق الأوسط) ناشد فيه أبناء دينه أن يؤلفوا مجلساً أعلى مقره باريس تمثل فيه فروع الطائفة فى جميع أنحاء العالم على أن يرفع هذا المجلس طلباً إلى الحكومة الفرنسية بإرجاع جميع اليهود إلى سماء « وطنهم» ، ثم وصف هذا الوطن بالعبارة الآتية :

« وهذا القطر الذى نريد أن نحتله يشتمل على مصر السفلى

(الوجه البحرى) ويمتد شرقاً إلى الجهات المتاخمة ، وينتهى بخط يمتد من بلدة عكا إلى البحر الميت ، وموقع هذا القطر أنفع المواقع فى العالم .

وسيمكننا من السيطرة على ملاحة البحر الأحمر ، وعلى تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقية الشرقية والجنوبية ، وكذلك سيسهل لنا تجارة إيران وآسيا نظراً لقربه من مدينتى دمشق وحلب ، كما يسهل الاتصال بواسطة البحر الأبيض المتوسط بالبلاد والممالك الأوربية . وهكذا تكون بلادنا بفضل موقعها الممتاز فى قلب العالم، المستودع الأكبر للمنتجات العالمية الثمينة » .

ثم يوضح الكاتب بعد ذلك المزايا التى تجنيها حكومة فرنسا من احتلال اليهود لذلك القطر والثمن الذى يجب أن يدفع للباب العالى فى مقابل الاستيلاء عليه[١] .

هذه الصيحة المبكرة لم يترتب عليها إجراء عملى ؛ وإنما المهم فى هذا النداء تحديده للقطر الذى يريده هذا الصهيونى المتقدم ، وأنه لا يشتمل على فلسطين وحدها بل على النصف الشمالى من القطر المصرى أيضاً . من المهم أن نذكر ذلك لأن أكثر الصهيونيين فى وقتنا هذا لا يشيرون إلى مصر ، وإن كانت هنالك عناصر صهيونية متطرفة لا تزال تصف الوطن الصهيونى بأنه يمتد من وادى النيل إلى وادى الفرات .

---

(١) راجع النص الأصلى فى صفحة ٣٠ من كتاب المستر باربور
N. Barbour : Nisi Dominus.

بدأت الصهيونية أعمالها المنظمة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، واتجهت فى جهودها وجهتين :

الأولى: الجماعة التى كانت تحركها نزعة دينية ثقافية وغرضها أن ترى فى فلسطين مركزاً محدوداً تقام فيه الشعائر الدينية اليهودية بكامل الحرية وتحيا فيه اللغة العبرية وتنشأ فيه مؤسسات ثقافية واجتماعية يهودية مع تمتع اليهود بكافة الحقوق التى بجميع سكان فلسطين دون أن تكون لهم أية ميزة سياسية أو أية نزعة استقلالية

أما الطائفة الثانية التى لم تلبث أن طغت على الأولى فهى: الصهيونية السياسية التى ترمى إلى إنشاء دولة صهيونية فى فلسطين يحشد فيها المهاجرون من الأقطار الأوربية التى يكثر فيها اليهود مثل روسيا وبولندا ، وتجمع لها الأموال من سراة اليهود فى جميع أنحاء العالم؛ هذه الطائفة التى أخذ أمرها يستفحل فى نهاية القرن الماضى لم تلبث أن نظمت تنظيما دقيقاً . وأصبح لها هيئات فى كثير من الأقطار الأوربية والأمريكية ومؤتمر صهيونى عام يعقد مرة فى كل عامين. وقد عقد لأول مرة فى مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧.

فى ذلك الوقت كان بعض الأغنياء من اليهود قد ساعد فعلا على إنشاء عدد صغير من المستعمرات الصهيونية التى تشتغل بالزراعة، ولكن مثل هذه المستعمرات لم تكن تطفىء غليل هذه الصهيونية . ولذلك تقدم رؤساؤها إلى السلطان عبد الحميد يلتمسون منه أن يسمح بإنشاء « جمهورية يهودية » فى فلسطين فى مقابل إعانات مالية ضخمة . فرفض السلطان، فأعادوا الكرة فأعاد الرفض، ولم يكتف بالرفض بل أمر أن يسمح

لجماعات صغيرة من اليهود إذا شاءت أن تنزل فى أية بقعة من الدول العثمانية ما عدا فلسطين .

أمام هذا الرفض الحازم حاول الصهيونيون أن يسمح لهم باحتلال قبرص فرفضت الحكومة البريطانية طلبهم ثم طلبوا أن يسمح لهم باحتلال منطقة العريش من أرض مصر — وهى على كل حال متاخمة لفلسطين — فأذنت لهم السلطات المختصة بأن يرسلوا بعثة صهيونية إلى العريش للبحث والتنقيب ، فانتهت تلك البعثة إلى أن الإقليم صالح للاستعمار على شرط أن يسمح لهم بجلب الماء من نهر النيل ، فأبى اللورد كرومر الموافقة على هذا المشروع فأهمل . من المهم أن نذكر هذا الحادث التاريخى لكى ندرك أن أرض مصر لم تكن فى يوم من الأيام خارجة عن نطاق التفكير الصهيونى وأن حكومة مصر قد بلغ بها التساهل إلى حد السماح لبعثة صهيونية أن ترتاد العريش وجزيرة سيناء .

اكتفى الصهيونيون فى السنوات التالية بتقوية المستعمرات التى سبق إنشاؤها فى فلسطين وبتوحيد صفوف أتباعهم فى مختلف الأقطار وترقب أول فرصة سانحة لتحقيق أطماعهم . وقد أتيحت لهم هذه الفرصة أثناء الحرب العالمية الأولى. ومن الممكن أن نعتبر هذه الحرب بمثابة نهاية المرحلة الأولى من الاستعمار الصهيونى . ولذلك يحسن بنا أن نقف قليلا لكى ننظر إلى ما تم فى هذه المرحلة البدائية .

أصبح عدد الصهيونيين فى فلسطين ٩٠,٠٠٠ ومجموع السكان ٨٠٠,٠٠٠ ، أى أنهم زادوا على عشر السكان ، وكانوا يؤلفون جماعة

منظمة ذات نزعة انفصالية تسودها عاطفة التعصب القومى ، وقد وصفهم حاكم يافا التركى بأنهم يحاولون أن ينفصلوا عن سائر السكان ، ولا يحتكمون إلا إلى المحاكم اليهودية ، ويستخدمون أوراقاً مالية خاصة بهم ولهم شارات تدل على الاستقلال السياسى أخصها العلم ذو اللون الأزرق والأبيض ويمعنون فى شراء الأرض من العرب ، وفى إحلال العمال اليهود محل العرب ويزدرون السلطة العثمانية واللغة التركية ، ويذكون فى مدارسهم روح التعصب لليهود ضد الأتراك ؛ وقد جعلوا من مستعمراتهم مراكز مستقلة لها محاكمها وقوات الدفاع الخاصة بها [1] .

من أجل ذلك اضطر جمال باشا إلى استبعاد عدد من أكثرهم تعصباً وتطرفاً واضطرهم إلى الانتقال إلى جهات أخرى من الدولة العثمانية . ومع هذا فإن الإجراءات التى اتخذها لم تكن صارمة أو قاسية بفضل تدخل ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

وجاءت الحرب العالمية الأولى فرأت الهيئة الصهيونية العالمية أن تتبع سياسة الحياد الرسمى ، ولكن فروعها فى ألمانيا من جهة وفى بريطانيا وأمريكا من جهة أخرى لم تكف عن السعى والجد فلم تلق توفيقاً يستحق الذكر فى الأولى ، ولكنها نجحت نجاحاً عظيما فى بريطانيا . وأراد الصهيونيون فى بريطانيا أن يحققوا برنامجهم الكامل بإنشاء دولة فى فلسطين ، وعارضهم معارضة شديدة يهود إنجلترا فترتب على ذلك تلك السياسة الوسط التى تضمنها وعد بلفور والتى قالت بأن بريطانيا « تنظر بعين الرضا إلى إنشاء

(١) راجع كتاب باربور ص ٥٣ .

وطن قومى لليهود فى فلسطين ، على ألا يكون فى هذا ما يمس حقوق اليهود فى سائر الأقطار أو حقوق الجماعات غير اليهودية التى تعيش فى الأرض المقدسة » . وقد اندفعت بريطانيا فى هذه السياسة لأنها وجدت فيها وسيلة لتثبيت قدمها فى أرض تزيد فى مقدرتها على الدفاع عن مواصلاتها الإمبراطورية عامة وعن قناة السويس بوجه خاص عدا ما تجنيه من المكانة السامية والمنزلة الرفيعة إذ تصبح هى الدولة المهيمنة على البلاد المقدسة ، التى نشأ فيها الدين المسيحى بعد أن حاول الصليبيون عبثاً انتزاعها من أيدى سكانها .

قبل الصهيونيون — مؤقتاً — تصريح بلفور وبذلوا مجهوداً جباراً حتى صيغت وثيقة الانتداب على فلسطين صيغة تساعدهم على تحقيق أغراضهم وتذهب فى تفسير ذلك التصريح إلى أبعد مدي يلائمهم ، فضمنت لهم أن تتخذ جميع الإجراءات اللازمة لتيسير الهجرة وتشجيعها وتمكين المهاجرين من شراء الأرض واستثمارها ، واحتلالها بواسطة جماعات متراصة متلاصقة ومن إقامة المشروعات لاستغلال الموارد الطبيعية فى مختلف أنحائها . وفوق هذا كله اعترفت وثيقة الانتداب بحق الهيئات الصهيونية فى أن تنشىء وكالة يهودية لكى « تتعاون » مع حكومة فلسطين من أجل تنفيذ جميع شروط الانتداب . فلم تلبث هذه الوكالة أن أضحت حكومة داخل الحكومة .

وبعد أن تم للصهيونيين هذا النصر الباهر فى وثيقة الانتداب ، أحرزوا نصراً آخر لا يقل خطراً بأن اختارت حكومة الانتداب يهودياً

صمياً وصهيونيًّا عريقاً ، وهو السير هربرت صموئيل ، لكى يكون الحاكم الأول على فلسطين فاستطاع الاستعمار الصهيونى فى هذه المرحلة الثانية — فى الفترة بين الحربين العالميتين — أن يثبت أركانه على قواعد متينة وأسس ضخمة . وأن يزيد عدد المستعمرين حتى ارتقى من نحو ٥٠,٠٠٠ فى عام ١٩٢٠ حتى بلغ ٦٦٠,٠٠٠ فى عام ١٩٤٠ وازداد العرب فى أثناء هذه الفترة زيادة طبيعية حتى صار عددهم يقارب المليون .

ولكن هذه المقارنة العددية لا تحمل صورة صحيحة عن الاستعمار الصهيونى فى هذه الفترة ، فإن اليهود لم يرضوا بمجرد زيادة العدد بل أنشأوا مدناً منها تل أبيب أكبر مدن فلسطين . وأصبحت لهم الكثرة العددية فى بيت المقدس واستولوا على أراض واسعة خصبة مثل مرج ابن عامر وأخرجوا المزارعين والفلاحين العرب منها وأنشأوا فى جوار حيفا منطقة صناعية هائلة غمرت بلاد الشرق الأوسط بمنتجاتها المتنوعة ، وفى هذه المصانع لا يستخدم غير عمال صهيونيين. وأمكنهم كذلك أن يحصلوا على حق احتكار كثير من المنافع العامة مثل الكهرباء ، كما أصبحوا هم العملاء لجميع الشركات الأجنبية التى ترسل منتجاتها إلى فلسطين وبعض جهات الشرق الأوسط ، وبذلك صارت المؤسسات الصهيونية هى الأداة الرئيسية للتجارة فى فلسطين وما يجاورها من الأقطار .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استطاع الصهيونيون أن يحملوا حكومة فلسطين على السماح لهم بأن يتسلحوا من أجل « الدفاع عن النفس» فلم يكتف الصهيونيون بهذا الحق بل أخذوا يستوردن الذخائر خفية ولم

يكتشف هذا الأمر إلا بطريق المصادفة . في منتصف أكتوبر سنة ١٩٣٥ وصلت من الخارج صناديق من « الأسمنت » إلى تل أبيب انكسر واحد منها فتبين لعمال الجمارك أن صناديق الأسمنت تشمل على رسالة من المسدسات الأوتوماتيكية ومئات الآلاف من الرصاصات وأظهر التحقيق فيما بعد أن هذه لم تكن سوى دفعة واحدة سبقتها دفعات عديدة وهذه الدفعات لم تستكشف ولم تصادر .

ومن المهم أن يدرك القارئ أن تهريب الأسلحة هذا يرجع إلى ما قبل عام ١٩٣٥ . وفى الوقت الذى كان النازيون يضطهدون اليهود لم يحاول الصهيونيون مقاومة النازيين بل وجهوا كل جهودهم نحو تسليح وتدريب الشباب الصهيونى من أجل الاستيلاء على فلسطين .

ورأت بريطانيا – بعد لأى – أن الاستعمار الصهيونى يوشك أن يصبح خطراً عليها ، وبدلا من أن تكون السياسة الصهيونية وسيلة لتثبيت أقدام بريطانيا فى فلسطين رأت نفسها تتخذ أداة لتنفيذ الأطماع الصهيونية ؛ وأدركت أن الخطر على النفوذ البريطانى لا يقل عن الخطر الذى يهدد الشعب العربى ، ولذلك سنت سياسة جديدة سمتها « الكتاب الأبيض » الذى صدر فى ربيع عام ١٩٣٩ والذى تقرر بمقتضاه الحد من الهجرة الصهيونية ووقف بيع الأراضى لليهود فى جزء كبير من فلسطين واتخاذ بعض الإجراءات نحو إعداد البلاد للحكم الذاتى . وقد نفذت شروط هذا الكتاب فى أثناء الحرب ثم خولفت صراحة بعد انتهائها مباشرة .

وهكذا تنتهى المرحلة الثانية من الاستعمار الصهيونى وتبدأ المرحلة

الثالثة ، فقد رأى الصهيونيون أن الحرب العالمية الثانية ستتيح لهم فرصة عظيمة لتحقيق أطماعهم فرسموا لذلك سياسة صريحة استغلوا بها ظروف الحرب استغلالا قويًّا ، فأقبلوا على التطوع آلافاً مؤلفة، لا حبًّا فى الحلفاء ولا رغبة فى هزيمة ألمانيا بل لكى يكتسبوا المران والخبرة ويوفروا الأسلحة والذخائر ، للمرحلة الثالثة من جهودهم الاستعمارية . لم يشترك هؤلاء اليهود فى حروب تستحق الذكر على الرغم من كل ما يذيعونه وينشرونه من الأكاذيب، ولكنهم من غير شك اكتسبوا دراية فنية عظيمة — سواء فى ذلك رجالهم أو نساؤهم — أتاحت لهم أعظم جيش مسلح مدرب فى الشرق الأوسط كله ، وقد أمكنهم أن يصنعوا بعض الذخائر والأسلحة الحربية إلى جانب المهربات الكثيرة التى كانت ترد إليهم من أمريكا وأوربا وساعدهم على التهريب أن كان لهم وهم أعضاء فى الجيش البريطانى كامل الحرية فى أن ينتقلوا بسيارات ذلك الجيش عبر الحدود دون تفتيش.

وأمكن للصهيونيين فى الوقت نفسه أن يجمعوا ثروة هائلة أكثرها من المموِّلين اليهود فى أمريكا وبعضها مع الأسف من الاتجار فى البلاد العربية نفسها ، وأخذ دعاتهم يبذلون همة فائقة للتأثير فى نواب أمريكا وشيوخها وساستها وفى بعض الساسة البريطانيين أنفسهم . وجعلوا ينادون صراحة بأنهم لا يريدون مجرد وطن قومى ، بل دولة يهودية فى فلسطين . وأنهم سيدخلونها عنوة إذا لم يسمح لهم بأن يدخلوها بالوسائل القانونية. بل لقد ذهب دعاتهم إلى أبعد من هذا بأن أعلنوا أن من برنامجهم أن يجلوا العرب جميعاً عن فلسطين فى مقابل تعويض مالى حتى يمكن إنشاء جمهورية صهيونية خالية

من كل عنصر غير صهيونى .

وقد رأى الصهيونيون حتى فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة أن بريطانيا لن تمكنهم من التوسع الاستعمارى فى فلسطين إلى أبعد من المدى الذى وصلوا إليه ، لأن ازدياد النفوذ الصهيونى أضعف النفوذ البريطانى أو بعبارة أخرى : أن الاستعمار الصهيونى لفاسطين أصبح خطراً على الاستعمار البريطانى فى هذا الركن الخطير من العالم .

وقد سبق لنا فى الفصل الثالث أن أوضحنا كيف خلقت بريطانيا المشكلة الصهيونية خلقاً لكى تستطيع أن تقيم نفسها حامية لمصالح اليهود ضد عدوان العرب ولمصالح العرب ضد عدوان اليهود، فلما أصبح النفوذ الصهيونى من القوة بحيث بات يهزأ بالسلطات البريطانية فى فلسطين ، بذل الإنجليز أثناء الحرب العالمية بعض الجهود للحد من العدوان الصهيونى. غير أن الزمام لم يلبث أن أفلت من أيدى البريطانيين ، وأخذ الصهيونيون يجاهرون بعدائهم للدولة المهيمنة على شئون فلسطين. وبلغت بهم الجرأة أن أرسلوا من فلسطين إلى مصر ثلاثة من رجالهم فى أثناء الحرب العالمية الثانية، فنزلوا القاهرة وقتلوا وزيراً بريطانياً عظيما وهو اللورد موين فى عقر داره فى رائعة النهار .

وقد كشفت هذه الجريمة عن عجز البريطانيين وضعفهم أمام العدوان الصهيونى ، فإنهم لم يظهروا تلك الغضبة المخيفة التى أظهروها مثلا فى مقتل السردار سنة ١٩٢٤ ، وقد قامت السلطات المصرية بمحاكمة الجناة وإعدامهم ، أما السلطات البريطانية فى فلسطين فلم تحرك ساكناً .

وظهر عجز البريطانيين واستخذاؤهم أمام العدوان الصهيونى فى صورة أوضح بعد انتهاء الحرب العالمية مباشرة ، فأخذ الصهيونيون يغيرون على المعسكرات البريطانية وثكنات الشرطة ويختطفون منها الأسلحة ، وجعلوا ينسفون الدور والمكاتب البريطانية ، ويفتكون بالأرواح جهرة ، وكانوا يقبضون على الجنود والضباط البريطانيين ويجلدونهم بالسياط فى وضح النهار ، وكان لهم ثأر عند أحد الضباط البريطانيين فتعقبوه إلى بلدته فى بريطانيا وفتكوا به هناك .

وقد رسم الصهيونيون خطتهم للاستيلاء على فلسطين فقسموها إلى مرحلتين :

الأولى : إجلاء البريطانيين عن فلسطين ، والثانية : إجلاء العرب عنها بعد ذلك .

ولم يبدأوا المرحلة الثانية إلا بعد أن أتموا المرحلة الأولى ، مع إدراكهم التام بأن العرب هم فى الحقيقة العدو الأول .

وقد كشفت الحرب العالمية الثانية عن ضعف الإنجليز فى الميدان الدولى ، فأصبحوا دولة من المرتبة الثانية ، تسير فى ركاب الولايات المتحدة الأمريكية وتعتمد عليها كل الاعتماد . ولعل الصهيونيين كانوا يتوقعون ذلك فأعدوا للأمر عدته . وفى أمريكا ستة ملايين من اليهود لهم نفوذ واسع وسلطان كبير . فصناعة السينما كلها فى أيديهم . وكثير من شركات الإذاعة والصحافة خاضعة لهم . وهناك صناعات أخرى عديدة مثل صناعة ملابس السيدات يسيطر عليها اليهود سيطرة تامة . ولذلك كان لهم فى

أمريكا نفوذ أكبر مما يبدو من نسبتهم العددية لجميع سكان الولايات المتحدة . فكانت لديهم من وسائل الإغراء ما مكنهم من تسخير كثير من رجال الدولة، وعلى الأخص رجال البيت الأبيض (أى رئاسة الجمهورية) لقضاء شهواتهم وتحقيق مآربهم .

وفى أمريكا يتمتع الرئيس الأعلى للدولة بسلطة واسعة توشك أن تكون دكتاتورية دستورية ، وعلى الأخص فى الشئون الخارجية . وقد وجد يهود أمريكا فى الرئيس الأسبق ترومان أداة طيعة ، لا يرد لهم طلباً ويشكل سياسته طبقاً لما يمليه دعاتهم .

وكان البريطانيون بعد الحرب فى أزمة مالية شديدة والتمسوا من أمريكا قرضاً يقرب من أربعة مليارات من الدولارات ، فمنحوا القرض على شرط أن تكون سياستهم فى فلسطين متجهة إلى تحقيق رغبات الصهيونيين. واشتد الضغط على البريطانيين حتى اضطروا لأن يعلنوا فى أول سنة ١٩٤٧ عزمهم على الجلاء عن فلسطين فى منتصف شهر مايو سنة ١٩٤٨ . وبذلك تم للصهيونيين تحقيق غرضهم الأولى ، ولم يبق إلا الغرض الثانى وهو إخراج العرب من فلسطين .

كان واجب الدول العربية أن تبادر برسم خطتها عندما أعلنت بريطانيا عزمها على الجلاء عن فلسطين ، ومن بواعث الأسف أن كثيراً من العرب لم ينظروا نظرة جدية إلى وعد بريطانيا بالجلاء ظنًّا منهم أن هذا لن يعدو أن يكون من قبيل وعدهم بالجلاء عن مصر . وفاتهم أن هنالك فرقاً كبيراً بين الحالتين ، لأن بريطانيا إذا أخلفت وعدها

مع مصر أو حتى مع الصهيونيين لا تستطيع أن تخلف وعداً قطعته أمام الأمريكيين .

ومهما يكن من أمر ، فإن الدول العربية لم تبدأ استعدادها لحرب فلسطين إلا عشية جلاء الإنجليز عنها . أما الصهيونيون فقد استعدوا لذلك استعداداً طويلاً ، فألفوا جيشهم الرئيسى المسمى « هجانا » وجيش الصاعقة المسمى « إرجون ». وبلغت قوتهم مجتمعة قرابة مائة ألف جندى وجاءتهم الإمدادات من مختلف الجهات فى أوربا وأمريكا .

ولسنا هنا فى مقام سرد حوادث الحروب الفلسطينية ، وحسبنا أن نذكر أن الصهيونيين أمكنهم أن يؤسسوا دولة سموها « إسرائيل » ، وأخذوا يشجعون المهاجرة إليها من جميع الأقطار ويجبون لها المال بجميع الوسائل ، ويبدون همة فائقة فى توطيد أركانها وتدعيم بنيانها، ويسيرون على خطة محكمة وسياسة واضحة الأهداف بصورة قلما نرى لها نظيراً فى البلاد العربية ، حيث يسود الشقاق والخلاف وتتعدد النزعات والأهواء فى بعض الأقطار .

وهكذا حقق الاستعمار الصهيونى هدفه الذى رمى إليه ، وأمكنه أن يبلغ مأربه الذى يتمثل فى المرحلة الثالثة وهى إنشاء دولة صهيونية فى فلسطين. فهل يقف الاستعمار الصهيونى عند هذا الحد ، أو هنالك مرحلة رابعة ؟

إن تاريخ الصهيونية كفيل بأن يوضح لكل ذى عقل أنها لن تقف عند حد . فإن التوراة أشارت إلى وطن يمتد من الفرات إلى النيل ؛ وهيهات أن تقعد الصهيونية عن السعى لتحقيق هذا الهدف . ولا شك أن

العالم العربى لا يزال مهدداً بكارثة هائلة لم يكن احتلال الإنجليز لقناة السويس بجانبها إلا شيئاً تافهاً . فإن الاستعمار الصهيونى لا يهدف إلى مجرد التسلط على السكان، بل يرمى إلى طردهم واغتصاب بلادهم وكثيراً ما نرى فى كتابات الصهيونيين وأتباعهم ،أن العرب أصلهم من الصحراء، فيجب أن يعودوا إلى الصحراء ، وهذه الفرية لا يفتأون يردّدونها .

أما زعم الصهيونيين بأنهم أصحاب حق فى فلسطين وأنهم من سلالة بنى إسرائيل فسنوضح فى الفصل التالى أن هذا الزعم باطل لا يقوم على أى أساس .

٨
الصهيونية فى نظر العلم

من أكبر المفتريات على الحقيقة والعلم، التى أشاعها الصهيونيون وضللوا بها العقول ، زعمهم أن اليهود فى جميع أنحاء العالم من أصل فلسطيني وأنهم حين يطالبون بفلسطين فإنما يطالبون ببلادهم التى نشأوا فيها ثم أخرجوا منها .

وهذا الزعم لا يمكن تفنيده إلا بالوسائل العلمية التى تبحث فى أحوال الشعوب والأجناس وتاريخها ، ونظراً لأن الاستعمار الصهيونى يحاول تبرير عدوانه الشنيع على الشعب العربى بهذه الخرافة التى لا نصيب لها من الصحة ، فإن من الضرورى تفنيدها بالدليل العلمى الواضح . ولذلك لم يكن بد من تخصيص فصل لمعالجة هذا الموضوع .

إن التعصب الدينى فى القارة الأوربية جعل سكانها ينفرون من أتباع الدين اليهودى . ودفعهم إلى التوهم بأن اليهود عنصر غريب عنهم دخيل فى بلادهم . وساعد على ذلك ما اضطر إليه اليهود من العزلة الاجتماعية والانفراد بأحياء خاصة بهم ، وامتناع المعاشرة والاختلاط بينهم وبين أبناء وطنهم من أتباع الدين المسيحى . ومن السهل فى مثل هذه الأحوال أن يشتد النفور بين الطائفتين حتى تصبح كل منهما وقد وقر فى نفسها أن الأخرى غريبة عنها، وأنها لا تمت إليها بصلة من قريب أو بعيد .

ولا يكاد الناس أن يجدوا شبهاً — حقيقيًّا كان أو وهميًّا — بين أعمال يأتيها اليهود اليوم وأعمال تنسب إلى بعض أفراد من بنى إسرائيل فى الزمن القديم، حتى يقول قائلهم إن اليهود هم هم لم يتغيروا ولم يتبدلوا، وإنهم لا يزالون كما كانوا منذ أربعين قرناً .

وهكذا انتشرت بين الناس تلك الخرافة بأن جميع اليهود فى جميع أنحاء العالم هم من نسل بنى إسرائيل ، وأنهم لذلك غرباء فى أوربا وأنهم شعب لا وطن له اليوم . والحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها هى أن يهود أوربا من أصل أوروبى صميم ، وأنهم اعتنقوا الدين اليهودى على أيدى مبشرين من اليهود فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وفيما تلاه من القرون . وقد كانت لهم مستعمرة واسعة فى حوض نهر الرين الشمالى والأوسط ، ومن هناك انتشروا فى وسط أوربا وفى شرقها وغربها .

والذين يزعمون أن اليهود جميعاً من سلالة إسرائيل قلما يقفون لحظة واحدة لكى يذكروا أن هذا الوهم لو كان صحيحا، لكان اليهود فى جميع أنحاء العالم متشابهين فى السحنة والمنظر والتقاطيع ، لأن قانون الوراثة يقضى حتما بأن الفروع تشبه الأصل وتتشابه فيما بينها تشابهاً شديداً . ولو نظرنا إلى اليهود فى مختلف أقطار العالم اليوم لوجدنا بينهم الشقر ذوى العيون الزرقاء والشعر الأصفر ، ورأينا بينهم السمر ذوى الشعر المجعد فى هضبة الحبشة ، والسود فى جنوب الهند والصفر المغول فى الصين، ورأينا بينهم الطوال القامة والقصار وذوى الرؤوس الطويلة والعريضة ، ويوشك ألا يكون هناك اختلافات بين السلالات البشرية

أكبر مما تجده بين الجماعات اليهودية فى مختلف القارات . وليس مما يقبله العقل أن تكون هذه الطوائف كلها من سلالة جنسية واحدة .

فاليهود إذن ينتمون إلى عدد كبير من السلالات ، وهم يشبهون الجماعات التى يعيشون وسطها . ومن أصدق الأدلة على ذلك ما حدث للألمان اليهود فى ظل الحكم النازى . فقد استطاع كثير منهم أن يثبتوا بواسطة وثائق أتقنوا صنعها وتزييفها ، أنهم آريون حقًّا ، من أصل جرمانى صميم ، فاقتنعت السلطات الألمانية بأنهم آريون حقًّا وسجلت أسماؤهم بأنهم آريون ، لم تجر فى عروقهم قطرة من أى دم آخر سوى الدم الآرى — أيا كان هذا الدم الآرى . ولو كان فى شكلهم أو مظهرهم شيء يدل على أنهم من عنصر دخيل لما صعب على أولى الأمر من النازيين أن يهتدوا إلى الحقيقة .

من أول الأشياء التى قالها الصهيونيون لأعضاء لجنة التحقيق الإنجليزية الأمريكية أنهم لا يذهبون إلى فلسطين كما يذهب المهاجر بل إن مثلهم كمثل الرجل الذى يريد أن يعود إلى داره بعد أن غاب عنها فترة من الزمن ، طالت أو قصرت . ومعنى هذا أنهم جميعاً من نسل أولئك الفلسطينيين القدماء الذين اضطهدتهم الدولة الرومانية وأرغمت كثيراً منهم على المهاجرة إلى بلاد أخرى . ومن الغريب أن هذا الزعم طالما وجد آذاناً صاغية .

وأكثر الكتاب الذين حاولوا الرد على الصهيونيين اكتفوا بأن قالوا إن هؤلاء لاحق لهم فى فلسطين لأن القطر لم يكن فى وقت من الأوقات

ملكاً خالصاً لليهود ، ولأن السيادة اليهودية فى أيام داود وسليمان وخلفائهما لم تدم سوى فترة قصيرة من الزمن . أما سيادة العرب فقد دامت أكثر من عشرين قرناً . وإن بنى إسرائيل قد اغتصبوا السلطة من الكنعانيين وهم شعب عربى فهم، لذلك دخلاء لا ينتمون إلى بلاد الشام . إلى غير ذلك من الحجج المعروفة .

وهذه حجج لها خطرها وقوتها . ولكنها تغفل الناحية الخطيرة فى الموضوع كله ، وهى أن الصهيونيين – وأكثرهم من يهود أوربا – ليسوا من أهل فلسطين مطلقاً بل من أصل جرمانى أو سلافى أو بلقانى ، وأن القول بأن يهود العالم مشتقون من تلك الطائفة الصغيرة العدد نسبيًّا زعم ظاهر البطلان ، أثبت بطلانه عدد كبير من علماء الأجناس ومن بينهم بعض الباحثين من اليهود أنفسهم .

إن الدعاية الصهيونية لم تتورع عن طمس الحقائق وإفساد التاريخ ، ولكن هناك دراسات وأبحاثاً تاريخية وإثنولوجية ترجع إلى عهد سابق لتلك الدعاية . وعلم الأجناس – على كل حال – علم يستند إلى المشاهدات المحسوسة المسجلة تسجيلا دقيقاً ؛ وعلى مقاييس وملاحظات لا تحتمل الشك أو التأويل .

وهو يعتمد فوق كل شىء على قواعد الوراثة المقررة وعلى أن الصفات الجسدية للأجداد يتوارثها الأبناء والأحفاد طبقاً لنظام مقرر ثابت تخضع له جميع الكائنات من نبات وحيوان وبشر . وليس مما يجوز فى أى عصر أن تظهر فى أى جنس من الأجناس صفة جديدة لم تكن من قبل شائعة

بين أبناء ذلك الجنس . فإذا امتاز جنس بالشعر المفلفل ، استحال أن يظهر بينه أفراد شعرهم مسترسل . و بيض الوجوه لا يولد لهم أبناء سود .

وأهم الصفات التى يتخذها علماء الأجناس مقياساً للتمييز بين السلالات هى طائفة خاصة من الصفات الجسدية أهمها شكل الشعر ولونه وشكل الرأس والوجه والأنف ولون الشعر والعيون والبشرة وطول القامة .

وقسم العلماء شعوب الأرض جميعاً طبقاً لهذه الصفات إلى ثلاثة أجناس : الزنجى والمغولى والقوقازى ؛ كما قسموا كلا من هذه الأجناس إلى سلالات يمتاز كل منها بصفات سائدة فى جميع أفراده ويتوارثها الأجيال الواحد بعد الآخر . وهذه الصفات لا تقبل التغير إلا فى ثلاثة أحوال : الأولى بطيئة جداًّ تستغرق بضعة آلاف السنين على أقل تقدير ، والثانية سريعة جداًّ قد تتم فى بضعة أجيال ، والثالثة متوسطة قد تحتاج إلى بضعة قرون .

فأما الأولى فتحدث بسبب العزلة والانقطاع عن باقى الجنس فى بيئة جديدة تكون بعض الصفات الجسدية أكثر ملاءمة لها ، فتفنى على مدى الزمن بالتدريج الأفراد التى لا تتصف بهذه الصفات . وتبقى الأخرى التى تمتاز بها . وذلك ما يعبر عنه ببقاء الأصلح أو الانتخاب الطبيعى ، ومثل هذا التطور بطىء جداًّ .

أما الثانية فتكون بالاختلاط بعناصر جديدة تعادل الأولى فى العدد أو تزيد عليها فترث الأجيال بعض الصفات من أحد الفريقين ، وبعض الصفات من الفريق الآخر طبقاً لقوانين الوراثة . وهناك صفات تسمى

فى مذهب مندل الصفات الغالبة Dominant ؛ وهذه تكون أكثر ظهوراً فى النسل من غيرها على مضى الأجيال ، ومن هذه الصفات الرأس العريض والقامة الطويلة والشعر الأسود والأنف البارز ، وغير ذلك .

أما الحالة الثالثة التى تتغير بها الصفات تدريجيًّا فهى ما يسمى الانتخاب الزوجى أو الصناعى ، ويحدث ذلك حين يرغب الرجال أو النساء فى صفات خاصة يفضلونها على غيرها . فيكثر الزواج والتناسل ممن يمتازون بهذه الصفات ، ويقل الإقبال على من حرموها ، فيؤدى هذا إلى أن تسود بعض الصفات على مدى الأجيال والقرون .

ولن يكون التبدل أو التغير عظيما اللهم إلا فى الحالة الثانية ، أى عند الخلط بين عناصر مختلفة ، لأننا فى الحالتين الأخريين لسنا أمام صفات جديدة غريبة ، بل أمام صفات كانت موجودة من قبل ، وازدادت بعد ذلك ظهوراً وانتشاراً .

فإذا رأينا جماعة من الناس فى أمريكا أو فى إنجلترا وإيطاليا (بسبب وجود جيوش زنجية أمريكية فى أثناء الحرب الأخيرة) لها نصيب واضح من صفات الجنس الزنجى فإن من العبث أن نزعم أن هذه الصفات قد هبطت من السماء أو خرجت من باطن الأرض ، بل لا بد لها أن تكون نتيجة اختلاط بأفراد من الزنوج . كذلك إذا رأينا طوائف عديدة من اليهود يمتازون بالصفات السلافية أو الجرمانية فإننا نستطيع أن نؤكد أن هذه الصفات تدل دلالة صريحة على أن هذه الجماعات تنتمى إلى السلالة الجرمانية أو السلافية وأنها بعيدة عن أن تنتمى إلى بنى إسرائيل أو العبرانيين القدماء .

وقد زعم عدد من الكتاب أن اليهود يمثلون جنساً نقيًّا لم يدخله عنصر غريب منذ نزل فلسطين أو نزح عنها إلى بلاد أخرى ، وأنه مثال نادر للصفاء الجنسى الذى لم يتكدر بالامتزاج بأى عنصر آخر ، وأنه لم يسمح للدم الأجنبى أن يختلط بدمه النقى ، وأن الزواج بين اليهود ظل مقصوراً على أفراد منهم دون سواهم كما كانت ديانتهم خاصة بهم لم يحاولوا أن ينشروها بين غيرهم من الناس .

ونحن — فى العالم العربى — نعلم على كل حال أن الزعم بأن الدين اليهودى كان مقصوراً على بنى إسرائيل زعم باطل ، فقد انتشر الدين اليهودى فى جهات مختلفة من الجزيرة العربية وفى القطر المصرى نفسه ، قبل الإسلام بقرون عديدة . وانتشر بوجه خاص فى بلاد اليمن . وفى القرآن الكريم إشارة صريحة إلى هذا فى سورة النمل فى الآيات الكريمة التى تروى قصة ملكة سبأ . وقد جاء فى ختامها : « قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

ومن المدهش بعد هذا كله أننا لا نزال نلقى بعض العلماء فى البلاد العربية يذهبون إلى أن الدين اليهودى مقصور على بنى إسرائيل لأنه ليس من الديانات التبشيرية العالمية ، بل هو دين قومى اختص به قوم من الأقوام دون سواهم . وقد انخدع هؤلاء الكتاب بما يرونه اليوم من كثرة المبشرين بالدين المسيحى وقلة الدعاة للدين اليهودى فظنوا أن هذا كان شأنهم فى جميع الأزمنة والعصور .

وهكذا نشأت تلك الخرافة العجيبة بأن الدين اليهودى ليس من

الديانات التبشيرية ، وأن اليهود لم يحاولوا فى تاريخهم الطويل أن ينشروا دينهم بين جماعات عديدة وسلالات مختلفة فى أى وقت من الأوقات . وهذا أمر يكذبه علماء اليهود أنفسهم . وسنورد خلال هذا الفصل مقتبسات من كتاباتهم تدل على الجهود العظيمة التى بذلت لنشر الدين اليهودى ولنكتف هنا بالإشارة إلى المقال الذى كتبه الأستاذ اليهودى ليوى H.H.J. Loewe أستاذ اللغة العبرية فى جامعة أكسفورد فى دائرة المعارف البريطانية[1] إذ يقول عن قيام اليهود بالتبشير ما نصه :

"The Jew, when confronted with Paganism omnipotent and universal, has engaged in active proselytization, and Classical authors testify to the vigour of the Jewish missionary enterprise..."

« نشط اليهود إلى التبشير ، عندما رأوا الوثنية قوية النفوذ منتشرة فى العالم . . . والكتاب القدماء (يونان ورومان) يشهدون بقوة النشاط التبشيرى الذى قام به اليهود » .

وقد أراد هذا الأستاذ أن يميز بين مسلك اليهود نحو الوثنية التى لم يألوا جهداً فى التبشير بين أتباعها وبين مسلكهم نحو المسيحين والمسلمين الذين لم يجد اليهود حاجة إلى التبشير بينهم . لأن دياناتهم على كل حال « لا بأس بها » وإن لم تبلغ فى نظرهم شأو الدين اليهودى .

وللكاتب الحق من غير شك فى أن يفضل ديانته وأن يمدحها كما يشاء . ولكن الزعم بأن اليهود لم ينشروا دينهم بين النصارى يحتاج إلى شىء

---

(١) مادة Judaism فى مجلد ١٣ صفحة ١٦٥ .

من التعديل . من الجائز أنهم لم يلجأوا إلى التبشير بين النصارى لإدخال جماعات منهم فى زمرتهم ولكنهم لجأوا فى العصور الوسطى وفى الأزمنة الحديثة أيضاً ، إلى إدخال الآلاف من النصارى فى دينهم بطريق الزواج كما سنرى فى موضع آخر من هذا الفصل .

من المسلم به — إذن — أن اليهود بذلوا جهوداً عظيمة لنشر دينهم بين الأمم فى أثناء العهود الوثنية . فإذا ذكرنا أن موسى عليه السلام كان يعيش فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد على وجه التقريب وأن داود عليه السلام تولى الملك فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد على وجه التحقيق ظهر لنا أن النشاط التبشيرى لليهود قد ابتدأ قبل ظهور المسيحية ببضعة عشر قرناً ، ولا شك أنه استمر بضعة قرون أخرى فى العهد المسيحى إذ كانت الوثنية بعد سائدة فى الدولة الرومانية وفى الأقطار المجاورة لها فى العالم القديم .

وهكذا لا يكون من الإسراف فى شىء أن نقول إن اليهود قضوا بضعة عشر قرناً يعملون بجد ونشاط فى نشر ديانتهم بين شعوب وأمم لا تمت إلى بنى إسرائيل بصلة . وهذه الشعوب قد اعتنقت الدين اليهودى وهى تعيش فى أوطانها على أيدى مبشرين ودعاة انتشروا فى مختلف الأقطار . وهؤلاء الدعاة أنفسهم ليسوا دائماً من أصل فلسطينى . بل قد يكونون ممن اعتنقوا الدين اليهودى وتحمسوا له وعملوا على نشره .

كذلك ليس بصحيح ما يزعمه بعض الكتاب من أن انتشار اليهود فى العالم كان نتيجة لتشتتهم فى البلاد Diaspora بسبب اضطهاد

قياصرة روما لهم ، التي كان آخرها هدم معابدهم بواسطة القيصر إدريانوس ؛ ومن الجائز أن هذه الاضطهادات ساعدت على انتشار اليهود ومضاعفة جهودهم التبشيرية فى مختلف الأقطار ولكن من البديهى أن هذه الأعمال التبشيرية الجديدة إنما كانت متابعة للجهود السابقة التى أشار إليها الأستاذ ليوى ، والتى شهد بقوتها كتاب اليونان والرومان .

ولا بد هنا من التنبيه إلى خطأ شائع طالما وقع فيه الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم وهو خطأ لا يزال يرتكب إلى وقتنا هذا ، وهو أن الناس عند ما يتحدثون عن الشعوب والأجناس يخلطون بين السلالة والدين واللغة ، وبين انتشار قوم من الأقوام وانتشار ثقافتهم أو ديانتهم . فإن كل شعب من الشعوب يستطيع أن يعتنق أى دين من الأديان ، وأن يتعلم أى لغة من اللغات . ولكن هذا لا يغير من جنسه ومن سلالته ، لهذا واجب أن نفرق بين الإسرائيليين من سكان فلسطين وبين اليهود الذين اعتنقوا الدين اليهودى ، ولم يكونوا فى يوم من الأيام من سكان فلسطين .

ومن الجائز أن عدداً كثيراً من الإسرائيليين قد هاجروا من فلسطين بسبب ما تعرضوا له من الاضطهاد — مع أنه كان فى الغالب اضطهاداً سياسيًّا لا دينيًّا — ولكن الدين اليهودى سبق له الانتشار فى أقطار وجهات عديدة ، قبل أن تولد الدولة الرومانية نفسها ، واستمر هذا الانتشار فى عهد الدولة الرومانية ، ولا شك فى أنه دام أيضاً بعد سقوط تلك الدولة .

* * *

من الواجب — إذن — على كل مفكر أن يفرق بين انتشار بنى

إسرائيل وبين انتشار دينهم . بل من الواجب أن نذكر أن انتشار الدين اليهودى قد خلق أجيالا وطوائف من اليهود لا تمت إلى بنى إسرائيل بشيء سوى صلة العقيدة . أو بعبارة أخرى إن انتشار اليهودية قد قضى على بنى إسرائيل كسلالة جنسية متميزة لأننا لو فرضنا جدلا أن الذين حملوا الدين اليهودى إلى الأقطار المختلفة كانوا من أصل فلسطينى ، فإنهم لم يكونوا سوى قطرة فى بحر من شعوب وسلالات لا تربطها بالإسرائيليين رابطة جنسية أو سلالية . وفى هذا يقول الأستاذ أوجين بتار أستاذ علم الأنثروبولوجيا فى جامعة جنيف :

"Tous les Juifs sont loin d'appartenir, à la race juive..."

« إن جميع اليهود بعيدون عن الانتماء إلى الجنس اليهودى[١] »

ثم يقول فى مكان آخر :

"Les Israelites constituent une Communauté religieuse et sociale, certainement très puissante, très coherente, mais ses éléments sont extrèmenent hétérogènes".

« إن اليهود يؤلفون جماعة دينية اجتماعية قوية جداً من غير شك ، شديدة التماسك ، ولكن العناصر التى تتألف منها متنوعة تنوعاً عظيماً[٢] » .

* * *

لا شك أن الدين اليهودى قد نشأ بين بنى إسرائيل فى أرض فلسطين ، وأنه انتشر من فلسطين فى جميع أنحاء العالم القديم بواسطة الجهود التى

---

(١) ص ٣١٣ من كتاب : . Eugene pittard : Les Races et l'Histoire,

(٢) ص ٣٣٠ من نفس الكتاب .

بذلها أصحاب هذا، الدين أول الأمر ثم جهود الذين تعلموه منهم بعد ذلك . وقد امتد انتشاره إلى أرض الصين شرقاً وإلى حوض الرين وبلاد أوربا غرباً . وأنه إذا كانت هنالك وحدة جنسية لأتباع هذا الدين فى أيامه الأولى فإن هذه الوحدة لم تلبث أن فقدت تماماً بسبب هذا الانتشار الواسع العظيم الذى استغرق قروناً عديدة .

وليس من السهل أن نتتبع بدقة الطرق التى سلكها الدين اليهودى فى توسعه وانتشاره فإن تلك الجهود العظيمة التى بذلها أتباعه لا يمكن أن تقع تحت حصر . وأكثرها قد حدث فى ظروف وأقطار تاريخها غير معروف على وجه الدقة . فإننا نعلم أن بلاد اليمن والحبشة قد انتشر فيها الدين اليهودى بواسطة الدعاية والتبشير . ولكن التاريخ القديم لكل من هذين البلدين لا يزال مجهولا فى تفاصيله الدقيقة التى تمكننا من أن نعرف كيف أقبل الناس على اعتناق هذا الدين :

وفى وسعنا — مع ذلك — أن نشير إلى ثلاثة طرق رئيسية نعرف أنها خطوط الانتشار الكبرى للمذهب اليهودى ، والتى أدت إلى اعتناق الديانة اليهودية بواسطة شعوب بأكملها فى بعض الأحيان .

١ — الطريق الأول طريق شرقى غربى يمتد من فلسطين شرقاً إلى العراق ، وغرباً إلى مصر وبرقة وبلاد المغرب وأسبانيا والبرتغال . ويهود هذا الإقليم لا يزال كثير منهم يعيشون فى ربوعه وأرجائه فكان فى بغداد وحدها عشرات الآلاف من اليهود قبل أن ينتقل كثير منهم إلى إسرائيل ، وفى شمال أفريقية منهم عدد كبير ،أيضاً وقد كان لهم فى أسبانيا شأن

خطير واشتركوا فى الحضارة الإسلامية تحت ظل الدولة العربية فى جميع ممالكها ودولها ، وفى هذه الأقطار لم يلق اليهود أى ضرب من ضروب الاضطهاد .. ولذلك مزجوا ثقافتهم بالثقافة العربية وعاشوا بين المسلمين فى هدوء لا يشوبه اضطهاد أو اضطراب سوى ما قد تتعرض له البلاد عامة فى أيام المحن والأزمات ، ولم يكد الحكم الإسلامى أن يزول من شبه جزيرة أيبيريا حتى أحس اليهود بالفرق الهائل بين حكم المسلمين وحكم الذين خلفوهم . فقد آذاهم الحكم الإسبانى وأنزل بهم ضروب العسف والبطش حتى اضطرهم إلى المهاجرة والتشرد ، ففتحت لهم الدولة العثمانية أبوابها ونزل أكثرهم بلاد البلقان والأناضول والتجأ فريق منهم إلى بلاد الشام .

هذه الطائفة التى انتشرت على طول هذا الطريق الشرقى الغربى وفى أقطار الدولة العثمانية تؤلف شعبة خاصة من اليهود تسمى طائفة سفردم : ولا يزيد عددها على عشر عدد اليهود فى العالم . والمجموعة التى تعيش فى البلقان تتكلم فيما بينها باللغة الأسبانية ولذلك يدعوهم الأستاذ بتار « اليهود الأسبان » وكثير منهم يسمون أنفسهم موريسكوس Moriskos وهو لفظ مشتق من كلمة المور التى يطلقها كتاب التاريخ على « عرب » أسبانيا وشمال أفريقية ، ويطلقها علماء الأنثروبولوجيا على سلالة من السلالات البربرية ، تمتاز بصفات جسدية خاصة ، منها الوجه البيضى الشكل والأنف البارز المحدب ، والتقاطيع المليحة . وهم الذين أسسوا دولة المرابطين فى بلاد المغرب وأسبانيا[1] .

---

(١) راجع فى دائرة المعارف البريطانية مادة Moors .

ولا شك أن فى تسمية هؤلاء أنفسهم بأنهم « مور » أى عرب أو بربر ردًّا قاطعاً على من يزعم أن اليهود كلهم من بنى إسرائيل ومع ذلك فإن الكتاب متفقون على أن يهود الشرق الأوسط وشمال أفريقية بل بجميع طائفة سفردم هم أقل اختلاطاً من غيرهم وأجدر من سواهم بأن يشتملوا على نسبة لا بأس بها من الدم الإسرائيلى الأصلى نظراً لقربهم من الوطن الإسرائيلى الأول ؛ ومع ذلك فإن من الثابت عند علماء الأجناس أن السفردم يشتملون على سلالات متعددة ، وإن كانوا أقل اختلاطاً من غيرهم .

٢ ـ الطريق الثانى الذى سلكه اليهود هو طريق القوقاز . وكان اليهود فى العصور الوسطى يؤلفون مجموعة هامة فى بلاد القوقاز حتى ظن بعض الكتاب أن هذا هو الطريق الذى انتقل بواسطته إلى روسيا . وسنرى بعد قليل خطأ هذا الرأى . وربما كانت هذه المجموعة القوقازية مجرد شعبة من المجموعة الأولى ، كما أن هنالك فرقاً أخرى امتدت من الشرق الأوسط إلى إيران وتركستان . ولعل هذا أيضاً هو الطريق الذى انتقل به الدين اليهودى إلى الهند وبلاد الصين .

وليس لليهود اليوم شأن كبير فى إقليم القوقاز . ولكن من الجائز أن وجودهم هناك كان من جملة العوامل التى أدت إلى انتشار الدين اليهودى بين شعب الخزر فى أيام الإمبراطور شرلمان . ففى ذلك الوقت اعتنق الخزر جميعاً هذا الدين دفعة واحدة . وهذا من الأمثلة التاريخية القليلة التى نعرفها عن اعتناق شعب كامل للدعاية اليهودية مرة واحدة .

٣ ـ أما الطريق الثالث فإنه من غير شك أهم هذه الطرق جميعاً وأعظمها خطراً فى تاريخ الطوائف اليهودية كلها، ولا يقلل من خطره أننا غير ملمين إلماماً صحيحاً بالخطوات التدريجية التى أدت إلى الانتشار الواسع للدين اليهودى على طول هذا الطريق وعلى الأخص فى حوض نهر الرين وفى بولندا وروسيا الغربية . وقلة إلمامنا بهذه الحوادث يرجع إلى سببين : الأول أن هذا الانتشار حدث أكثره فى عصور لم ينفذ إليها ضوء التاريخ ، وبين الشعوب الجرمانية والسلافية فى عهودها الأولى، أى فى أزمان جاهليتها . الثانى أن انتشار الديانات هو بطبعه ليس من الأمور التى يسهل على المؤرخين تتبعها وتحقيقها ولكن العبرة بالنتيجة على كل حال . وليس هنالك أدنى شك فى تلك النتيجة ، وهى أن جماعات يهودية كبيرة العدد قد تم تكوينها قبل ميلاد المسيح بقرنين أو ثلاثة فى الحوض الشمالى لنهر الرين ، ثم تفرعت منها مجموعات أخرى فى بولندا وفى روسيا الغربية، وقد ازدادت هذه المجموعات فى العدد برغم ما تعرضت له من الاضطهاد حتى بلغ عددها تسعة أعشار اليهود فى العالم .

وهذه هى المجموعة الكبرى التى يطلق عليها اسم اليهود الإشكنازم وهى تتكلم فيما بينها لغة يدش yiddish وهى، تطابق لغة الإقليم الشمالى الغربى من ألمانيا . وعلى الرغم من أنها لغة ألمانية فإنها تكتب بالحروف العبرية ، وقد دخلت هذه اللغة مفردات من لغات أخرى كالمصطلحات الدينية المشتقة من اللغة العبرية وكذلك عدد من الكلمات السلافية بعد الاختلاط بالسلاف . ولكن هذا الاقتباس لم يغير من طبيعة اللغة شيئاً .

وقد وصفها كاتب يهودى فى دائرة المعارف البريطانية بأنها من لغات ألمانيا السفلى . . . أى ألمانيا الشمالية الغربية ولهذا السبب اختلفت بعض الاختلاف عن اللهجة الألمانية الحديثة .

تكتب هذه اللغة بحروف عبرية كما ذكرنا . والسبب فى ذلك يرجع إلى أن الدين اليهودى قد انتشر بين الألمان ؛ وهم فى زمن جاهليتهم ولم تكن لغتهم تكتب ، ولم يكن بد من أن تكتب لهم صلواتهم وعباداتهم . ولذلك اعتنقوا الدين اليهودى والكتابة العبرية فى آن واحد .

وقد ظل الدين اليهودى ينتشر بين الألمان وسكان أواسط أوربا قبل أن يظهر الدين المسيحى وقبل أن يأخذ فى الانتشار بقرون عديدة ؛ وفى أثناء هذه القرون الطوال كان أتباع الدين اليهودى يتزايدون دون أن يتعرضوا لأى نوع من الاضطهاد ، كما أن اضطهاد اليهود بواسطة الدولة الرومانية لم يبدأ إلا فى وقت متأخر نسبياً ، كما أن الاضطهاد المسيحى لليهود لم يبدأ فى ألمانيا إلا فى القرون الوسطى ، وقد أتيح ليهود ألمانيا فسحة طويلة من الزمن لكى يتزايدوا ويتكاثروا وينشروا دينهم فيها وفيما جاورها من البلاد .

من المهم إذاً أن اليهود فى ألمانيا والبلاد السلافية هم عبارة عن طوائف من الألمان والسلاف اعتنقوا الدين اليهودى ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد على أيدى أولئك المبشرين النشيطين الذين أشار إليهم الكاتب اليهودى ليوى . وكانت لغتهم منذ البداية لغة ألمانية صميمة وإن كتبت — للأسباب التى أوضحناها — بالحروف العبرية . وليس مما يقبله العقل

أن تكون هذه المجموعة اليهودية الجرمانية مشتقة من بنى إسرائيل فى ذلك الوقت المتقدم قبل الميلاد ببضعة قرون . كما أن العقل لا يقبل أن يكون يهود اليمن ومصر وبلاد الحبشة — وكلها أقطار قد انتشر فيها الدين اليهودى فى ذلك الزمن البعيد نفسه — من أصل فلسطينى . وسنرى فيما يلى تأييداً لهذا الرأى فيما كتبه علماء اليهود أنفسهم .

انتشرت النصرانية بعد ذلك فى العصور الوسطى وبدأ ذلك الاضطهاد الطويل الذى عاناه اليهود على أيدى النصارى . ومع ذلك فإن جهود النصرانية وانتشارها فى أوربا والاضطهاد الذى تعرض له اليهود لم يحل بينهم وبين امتصاص عناصر جديدة بطريق الزواج . وفى ذلك يقول الأستاذ « ريلى » :

« من المرجح أن كثيراً من الدم المسيحى قد امتصه اليهود بواسطة الزواج الخفى أو المخالف للقانون irregural ، فلقد سنت قوانين كثيرة فى العصور الوسطى تحرم على اليهود أن يتخذوا خادمات من النصارى . ولكن هذه القوانين كانت قليلة الغناء لأننا نجد أحد الأساقفة فى بلاد المجر عام ١٢٢٩ يقرر أن هنالك يهوداً عديدين يعيشون عيشة غير شرعية مع زوجات من النصارى وأن المتحولين إلى الديانة اليهودية يعدون بالآلاف . ثم يقول الأستاذ ريلى : إن هذا التحريم كان مقصوراً على الحرائر أما الإماء فلم يكن هنالك تشريع يحميهن[١] .

يرى القارئ أننا قد التجأنا بوجه خاص فى بحثنا هذا إلى علماء

---

(١) راجع ص ٣٩٢ من كتاب : W. Z. Ripley, Races of Europe

الأجناس ، فإن هؤلاء قد اضطروا لأن يواجهوا مشكلة لم يكن بد من معالجتها . فقد وجدوا أنفسهم أمام ادعاءات عنيفة بأن اليهود جنس نقى لم تدخله عناصر غريبة فى أى عصر من العصور ، وأن يهود العالم الذين يبلغون خمسة عشر مليوناً من الأنفس قد تولدوا جميعاً من الشعب الإسرائيلى الذى عاش فى فلسطين ، وهو لا بد أن يكون من الجنس السامى . ولو كان هذا الزعم صحيحاً لكان هنالك تشابه فى الصفات الجسدية بين اليهود فى جميع أنحاء العالم . أو لكان هنالك — على الأقل — تقارب فى تلك الصفات وعلى الأخص لأن العزلة الاجتماعية والاضطهادات المتكررة والتشريعات العدوانية كلها مما يساعد على تركيز الصفات المشتركة وتقويتها ، غير أن الأنثروبولوجيين بدلا من أن يجدوا تشابهاً فى الصفات بين اليهود وجدوا اختلافات هائلة . ورأوا أن كل جماعة يهودية فى كل قطر من الأقطار لا تختلف اختلافاً جوهرياً فى صفاتها الأنثروبولوجية عن سائر سكان ذلك القطر . ويعتمد علماء الأجناس فى دراستهم على الصفات التى لا تتأثر بالبيئة ولها قيمة وراثية كبيرة . وقد استعرض كل من الأستاذين ريلى وبتار صفات الطوائف اليهودية فى مختلف الأقطار وحللوا هذه الصفات تحليلا دقيقاً فوجدوا أن اليهود فى إفريقية الشمالية لا يختلفون عن العرب والبربر ، وفى ألمانيا يشبهون جميع الألمان شبهاً واضحاً ، وبين السلاف لا يختلفون عن مواطنيهم من السلاف . وكذلك قرر علماء الأجناس أن بعض الصفات التى يزعم أنها تميز اليهود من الأنف البارز ليس شائعاً بين جميع طوائف اليهود .

كما أنه واسع الانتشار بين سلالات وأجناس عديدة مثل الأرمن وسكان آسيا الصغرى وغيرهم .

والمقام لا يسمح لنا بأن نورد هنا هذه الأبحاث الأنثربولوجية على وجه التفصيل ولكن حسبنا أن نورد النتائج التى وصل إليها هؤلاء العلماء وكلهم من أخلص الناس للعلم وهم أبعد الناس عن التعصب الدينى أو الجنسى . والأستاذ ريلى قد ألف كتابه عن أجناس أوربا فى أواخر القرن الماضى قبل أن تنشأ الدولة الصهيونية ولذلك كانت لأقواله مكانة خاصة وقد قال فى سياق بحثه :

إن تسعة أعشار يهود العالم يختلفون عن سلالة أجدادهم اختلافاً واسعاً ليس له نظير . وإن الزعم بأن اليهود جنس نقى حديث خرافة ، ولقد أصاب رينان فى تأكيده بأن كلمة يهودى ليس لها معنى أنثروبولوجى لا فى أوربا ولا فى حوض نهر الطونة على الأقل . وصدق الأستاذ لمبروزو فى ملاحظته بأن اليهود الحديثين هم أدنى إلى الجنس الآرى منهم إلى الجنس السامى[١].

وجاء فى أثناء بحث الأستاذ بتار عن اليهود ما يلى :

"Les Juifs appartiennent à une communauté religieuse et sociale, à laquelle se sont aggregés, de tous temps, des individus appartenants à des races diverses. Ces Juadisés ont pu venir de tous les horizons ethniques, tels les Falacha de L'Abyssinie, ou les Allemands du type germanique : tels les Tamils, Juifs noirs

---

(١) ريلى – نفس المرجع ص ٣٩٠ .

de l'Inde, ou les Khazares, que l'on suppose être de la race turque... Il est impossible de croire que les Juifs blonds ou châtins, aux yeux clairs, que l'on rencontre souvent dans l'Europe central, peuvent être apparentés, zoo-logiquement aux populations Israelites originelles, qui avais, jadis, leur habitat dans les environs du Jourdan."

« أن اليهود عبارة عن طائفة دينية اجتماعية انضم إليهم فى جميع العصور أشخاص من أجناس شتى ، وهؤلاء المتهودون جاءوا من جميع الآفاق . فنهم الفلاشا سكان الحبشة ومنهم الألمان ذوو السحنة الجرمانية ومنهم التامل — اليهود السود — من الهند ومنهم الخزر ، والمفروض أنهم من الجنس التركى .

ومن المستحيل أن نتصور أن اليهود ذوى الشعر الأشقر أو الكستنائى والعيون الصافية اللون الذين نلقاهم كثيراً فى أوربا الوسطى يمتون بصلة القرابة — قرابة الدم — إلى أولئك الإسرائيليين القدماء الذين كانوا يعيشون بجوار نهر الأردن[1] .

وبعد أن يذكر الأستاذ بتار أن عدد اليهود فى العالم لا يقل عن بضعة عشر مليوناً من الأنفس يتساءل : أيمكن أن يكون هذا العدد الهائل قد توالد — مع الاضطهاد والمذابح — من أولئك الخمسين ألفاً الذين شردوا فى عصر أدريانوس حسب بعض الروايات ؟ ثم يرد على هذا السؤال بأن هناك مجموعات كاملة قد تهودت وأضافت جموعها

---

(١) نفس المرجع ص ٣١٣ وما بعدها .

المماثلة وصفاتها الجسدية إلى الفريق الإسرائيلى .

ذلك هو الرأى القاطع الذى أدلى به باحث علامة جليل يعد من قادة الباحثين فى علم الإنسان . ومن الجائز أن بعض الصهيونيين قد يتهمه وأمثاله من العلماء بالغلو والتعصب ضد اليهود ، ولذلك يجمل بنا أن نذكر أنه فى ختام بحثه عن اليهود يشير بسخرية لاذعة إلى الذين يعادون اليهود بزعم أنهم جنس غريب عنهم ، مع أنهم بذلك يعادون أنفسهم وهم لا يشعرون .

بقى أن نشير إلى آراء بعض علماء اليهود فى هذا الموضوع الخطير ، فلئن كان دعاة الصهيونية قد ملأوا الجو بمزاعمهم وتضليلهم فإن هناك باحثين من اليهود لا يعتمدون فى كتاباتهم إلا على البحث العلمى الخاص ، وهؤلاء يدركون تمام الإدراك أنهم لا يميزهم عن مواطنيهم من النصارى سوى اتباعهم للمذهب اليهودى .

ومن أشهر هؤلاء العلماء الأستاذ فريدريخ هرتس صاحب كتاب الجنس والحضارة وقد جاء فى سياق كلامه عن التكوين الجنسى لليهود العبارة الآتية :

لم يعد بالإمكان أن يتمسك الإنسان بذلك الرأى الذى يمثل الآريين من جهة واليهود من جهة أخرى كجنسين مختلفين أشد الاختلاف ، فقد أثبت البحث الأنثربولوجى بصورة لا تحتمل الجدل ما بين الإثنين من القرابة الشديدة . . . وقد استطاع اليهود فى أثناء تاريخهم الطويل أن يمتصوا مقداراً كبيراً من الدماء الأجنبية ، وهذه الحقيقة تفسر ما نراه فيهم

من اختلاف فى الصور والأشكال ومشابهتهم للشعوب التى يعيشون بينها . وقد كان اعتناق الديانة اليهودية بواسطة اليونان والرومان والشعوب الأخرى أمراً كثير الحدوث وعلى الأخص فى القرن الأول والثانى قبل الميلاد . أما فى العصور الوسطى فعلى الرغم من جميع العقبات قد حدث مثل هذا التحول إلى الديانة اليهودية وعلى الأخص فى البلاد السلافية، وهذا هو السبب فى أننا نرى اليهود الروس والبولونيين يشبهون السلاف شبهاً لا شك فيه . . . واليهود الألمان أقرب شبهاً بسائر الألمان منهم بإخوانهم فى الدين من أهل فلسطين (١) .

هذه نبذة قصيرة ترينا رأى الأستاذ هرتس . ولولا ضيق المقام لأوردنا فصولا عديدة من كتابه القيم ولكن حسبنا هذا القدر للدلالة على أن الباحثين العلماء من اليهود لا يختلفون عن سواهم فيما أوردوه من الحقائق وما أدلوا به من الأدلة .

* * *

وصفوة القول أن الكثرة الساحقة من اليهود هم أبناء الأقطار التى يعيشون فيها وأنهم بعيدون كل البعد عن أن يكونوا من نسل ذلك الشعب القليل العدد الكثير المواهب الذى جاء ذكره فى الكتب المقدسة .

ونستطيع أن نلخص انتشار الدين اليهودى فى المراحل الآتية :

١ — عاش بنو إسرائيل فى فلسطين حيث أمكنهم أن يؤسسوا ديانتهم

---

(١) ص ٣١٣ وما بعدها من كتاب Friedrich Herz: Race and Civilisation.

وأن ينشروها بين الجماعات الأخرى التى كانت تسكن فلسطين . وهؤلاء اعتنق بعضهم الدين اليهودى واختلط بالإسرائيليين وكان هذا هو الاختلاط الأول فى أرض فلسطين نفسها .

٢ — أخذ اليهود بعد ذلك منذ القرون السابقة للميلاد ينشرون ديانتهم بين الشعوب الوثنية فى مختلف الأقطار والأنحاء مستعينين على ذلك بالجماعات التى اعتنقت دينهم واشتركت فى نشره والتبشير به .

وكلما ابتعدنا عن فلسطين زادت نسبة العناصر الجديدة التى دخلت الدين اليهودى حتى كانت شعوب بأكملها تعتنق ذلك الدين .

٣ — وجدت اليهودية أرضاً خصبة للغزو والانتشار فى بلاد الألمان والسلاف الوثنيين فانتشرت بينهم بدرجة ليس لها نظير فى أى قطر آخر فيما نعلم .

وكانت فلسطين دائماً هى الأرض المقدسة التى تحترمها هذه الجماعات كما يحترم المسلمون مكة والحجاز وكما ينظر الكاثوليك إلى روما نظرة احترام . ولكن الصلة فى كل هذه الأحوال هى صلة روحية بحتة وليست صلة القرابة الجنسية .

أما ما يقال من أن اليهود فى جميع الأقطار صوراً لا يخطئها من ينظر إليهم فقد أثبت العلماء بطلان هذا الزعم كما أثبتوا أن اليهود ينتمون إلى جميع الأجناس السوداء والسمراء والبيضاء والصفراء ، وأنه إذا كان هنالك تشابه سطحى فى بعض جهات أوربا ، فإن مرجع ذلك إلى أسباب اجتماعية أخصها أن اليهود يتزاوجون فيما بينهم فى معظم الأحيان

وأنهم قد اضطروا لأن يعيشوا فى معزل عن سائر الناس .

أما ما لقيه اليهود من الاضطهاد فى أوربا فإن هذا لا يرجع إلى أنهم جماعات غريبة فى أوطانهم بل كان اضطهادهم مظهراً من الاضطهاد الدينى الذى صبغ القارة الأوربية بالدماء . والذى لم يكن ضحاياه اليهود وحدهم .

وهكذا يبدو لنا فى وضوح وجلاء أن يهود أوربا — وهم عماد الصهيونية ودعاتها — هم من أصل أوربى كما أن يهود اليمن من أصل يمنى ويهود الحبش من أصل حبشى ، ومن الافتراء على الحقيقة أن يقال إن اليهود شعب لا وطن له ، بل هم أعضاء فى شعوب كثيرة ، ولهم أوطان عديدة ، وإن اختلفوا فى الدين عن سائر السكان فيها .

* * *

يرى القارئ فيما تقدم أن صوت العلم فى هذا الموضوع الخطير صريح لا لبس فيه ولا إبهام ، ولا خفاء فيه ولا غموض . وأن الزعم بأن يهود أوربا من أصل فلسطينى ، زعم باطل قد فنده العلم وأثبت بطلانه فى صورة لا تدع مجالا للشك . فهل خفيت هذه الحقيقة عن الساسة البريطانيين فى أثناء الحرب العالمية الأولى حتى اندفعوا إلى تأييد السياسة الصهيونية بكل ما تملكه الدولة البريطانية من القوة والسلطان ؟ وضحوا فى سبيل تحقيق هذه السياسة بشرف وعودهم التى ارتبطوا بها ارتباطاً مقدساً بأن يؤيدوا القضية العربية فى جميع الأقطار العربية ؟

إن السياسة البريطانية الصهيونية التى تضمنها وعد بلفور اتجهت

نحو إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وعبارة (وطن قومى) National Home تفترض أن اليهود قوم من الأقوام وليسوا مجرد أتباع دين من الأديان المقدسة . واتجاههم نحو إنشاء هذا الوطن القومى فى فلسطين تسليم من جانبهم بأن هنالك صلة بين تلك القومية وبين ذلك الوطن .

فهل كان ساسة بريطانيا يجهلون أنهم بزعمهم هذا يكذبون على العلم وعلى التاريخ ، أو كانوا يدركون أنهم يجارون الدعاية الصهيونية وهم يعلمون علم اليقين أنها دعاية باطلة ؟

ليس فى العالم اليوم أمة من الأمم ولا قومية من القوميات تكونت من جمع أفراد وجماعات مبعثرين فى مختلف الأقطار ، بحجة انتمائهم إلى ديانة من الديانات . فهل جهل الساسة الإنجليز هذه الحقيقة أيضاً حتى أقدموا على تأييد السياسة الصهيونية عن إدراك وإقناع ؟

إن الرد على هذا السؤال ليس بالأمر العسير ؛ ولدينا أدلة وافية من كتابة المؤرخين والساسة الإنجليز نوردها هنا لكى توضح هذه الناحية الغامضة من سياسة بريطانيا .

فقد جاء فى الجزء الرابع من كتاب المؤرخ العظيم المستر تمبرلى فى تاريخ مؤتمرات الصلح التى عقدت بعد الحرب العالمية الأولى ما يأتى :

« كانت لدى بريطانيا أسباب خاصة دعتها إلى السياسة التى اتبعتها فى فلسطين . وهذه الأسباب التى قد نتبينها فى المزايا البديهية لتغطية قناة السويس من الناحية الشرقية فى إقليم يسكنه عنصر من الناس يرى مصلحته فى تأييد بريطانيا ومؤازرتها . هذا إلى جانب ما تناله من تأييد

اليهود فى جميع أنحاء العالم . هذه هى النظرة البعيدة التى اقتضتها المصالح البريطانية الاستعمارية [١] .

هذه العبارة ذات المدلول الواضح جاءت فى كتاب من الطراز الأول لمؤرخ من كبار المؤرخين البريطانيين، وقد شاءت المقادير أن تسخر من تلك النظرة البعيدة ما وسعتها السخرية ، فأرتنا العصابات الصهيونية — التى أريد منها مؤازرة بريطانيا وتأييدها — تنكل بالبريطانيين أشد التنكيل .

وهنالك مؤلف آخر سبقت الإشارة إليه وهو السير مارتن كونواى عالج هذا الموضوع بصراحة يشكر عليها فقال فى الفصل الثانى عشر من كتابه عن فلسطين ومراكش ما يلى :

« إن الخطر الحقيقى على قناة السويس لا يجىء من الغرب . بل من الشرق . فمن ناحية فلسطين يجىء الخطر الجدى دائماً ومن وراء فلسطين سوريا ومن وراء سوريا الأتراك ومن وراء الأتراك أية دولة قد تكون معادية لبريطانيا : ألمانيا فى الماضى . وروسيا فى المستقبل . . من يدرى ؟ ولقد أثبت الفرنسيون أنهم أنداد ينافسوننا لا أصدقاء يعاوننا ، ولذلك كان قبض بريطانيا على فلسطين مصلحة إمبراطورية من الطراز الأول » .

ثم يمضى الكاتب بعد ذلك لكى يشرح فائدة وجود طائفتين مختصمتين فى فلسطين وما يتطلبه هذا من وجود هيئة خارجية محايدة لكى تحمى كل فريق من عدوان الآخر، وهذه الحالة — فى نظره — حالة

Harold Temperley: History of the peace Conference Vol.IV, P. 7. (١)

مثالية ideal لأنها تتطلب بقاء بريطانيا فى فلسطين إلى أجل غير محدود .

وهكذا تجد فى كتابة العلماء والساسة البريطانيين أنفسهم رداً شافياً وافياً على السؤال الذى سبق لنا إيراده : وهو هل كان تأييد السياسة البريطانية للصهيونيين عن عقيدة وإيمان بصدق دعواهم وصحة قضيتهم ؟ فمن الواضح وضوح النهار الساطع أن بريطانيا جارت السياسة الصهيونية من أجل أسباب خاصة وهى تعلم أن الدعوة الصهيونية لا تستند إلى أساس ، فلقد وجه إليهم يهود بريطانيا ممن لا يوافقون على المبادىء الصهيونية كتاباً قالوا فيه إن اليهودية دين وليست سياسة . وأن فى إيجاد صلة سياسية بين اليهود وبين البلاد المقدسة خطراً على اليهود فى جميع أنحاء العالم لأن هذا يصفهم بأنهم غرباء فى أوطانهم . وهكذا يكون الساسة البريطانيون قد مضوا فى تأييد الدعوة الصهيونية وهم مدركون بطلانها ، وذلك لأسباب خاصة تتصل بالسياسة الاستعمارية كما توهموها فى ذلك الوقت .

ولم يكن بد لهذه السياسة الاستعمارية من أن تتوارى خلف ظاهرة العطف على الدعوة الصهيونية ولذلك نرى صك الانتداب على فلسطين نفسه يكرر تلك الخرافة مرة أخرى فيشير إلى الاعتراف بالصلة التاريخية التى تربط الشعب اليهودى بفلسطين ، وإلى الأسباب التى اقتضت إعادة إنشاء وطنهم القومى فى تلك البلاد .

وهكذا نرى فى مقدمة صك الانتداب افتئاتاً على العلم وافتراء واضحاً على الحقيقة والتاريخ ، ورجال العلم يقررون فى غير لبس ولا غموض أن جميع يهود العالم بعيدون عن الانتماء إلى الجنس اليهودى القديم .

والعلم يفند الدعوة الصهيونية ويحكم بزيفها وبطلانها كما يقضى بأن تصريح بلفور وصك الانتداب وثيقتان لا تستندان إلى حق ولا بد للعرب أن يعملوا على نقضهما وإلغائهما .

وليست السياسة الصهيونية سوى سياسة استعمارية عدوانية وهى تشبه فى كثير من صفاتها السياسية النازية الجرمانية . وليس فى هذا وجه غرابة ، لأن قوامها يهود جرمانيون ولذلك لم تختلف أساليبهم عن الأساليب الهتلرية فى شىء . فقد كان النازيون أيضاً يمسخون علم الأجناس ويصبغونه بالصبغة التى تتفق مع شهواتهم فابتكروا شيئاً سموه الجنس الآرى زعموا أنه أفضل الأجناس وأن من الواجب أن تكون له الزعامة والسيادة على جميع الأمم والشعوب .

والعلم ينكر وجود شىء اسمه الجنس الآرى ، بل الآرية ثقافة ولغة تتمثل فى تلك اللغات المنتشرة فى الهند وإيران وأوربا وليس لها أساس فى جنس أو سلالة . كذلك اليهود اخترعوا شيئاً سموه الجنس اليهودى وحشروا فيه سلالات مختلفة متباينة ، مع أن اليهودية دين انتشر بين عدد كبير من الأجناس والسلالات التى لا تمت إلى فلسطين بأدنى صلة .

ولئن كانت الدعاية النازية قد انتهت بالنازيين إلى إشهار حرب عالمية فإن الدعوة الصهيونية موجهة إلى قلب البلاد العربية فجدير بأبناء هذه البلاد أن ينتبهوا إلى ما تقوم عليه تلك الدعوة من زيف وبهتان .

* * *

أسهبنا نوعاً ما فى حديثنا عن الاستعمار الصهيونى ، لأنه من جهة نوع فريد بين جميع أنواع الاستعمار ، ولأنه من جهة أخرى أكبر خطر استعمارى يتهدد العالم العربى . فإنشاء دولة إسرائيل ، تمتد أراضيها من خليج العقبة إلى حدود لبنان ، قد فصم وحدة الأراضى العربية ، فانقطع الاتصال المباشر بين الجانب الشرقى والجانب الغربى العربى ، واحتل الصهيونيون قطراً من البلاد العربية يقع منها موقع القلب من الجسم ، ولا شك أن هدفهم القريب هو التوسع والانتشار من هذا المركز الإستراتيجى الخطير .

واسم الدولة نفسه « إسرائيل » يشير إلى هذا التوسع ، لأن بلاد إسرائيل القديمة هى القطر العربى الذى عاصمته نابلس والذى يحتله العرب الآن . وقد صاح صائحهم : «إن إسرائيل لا تستطيع أن تعيش دون ضم "إسرائيل" فجدير بالعرب أن يدركوا حقيقة خطر الاستعمار الصهيونى على كيانهم . وأن هذا الخطر أشد هولا فى المستقبل مما كان عليه فى الماضى .

٩

العُدوان الثلاثي على مِصر

إن العدوان الذى قامت به بريطانيا وفرنسا ، مع الاستعانة بإسرائيل ، حادث غريب فى تاريخ الاستعمار كله . وهو — بوصفه ظاهرة استعمارية ، يستحق أن نوليه عناية خاصة لاستجلاء حقيقته .

والآن وقد انقضت بضعة أشهر على تحرير بورسعيد وجلاء القوات المعتدية على أرض مصر ، لعل من الممكن أن ننظر إلى ذلك الغزو الفاشل نظرة شاملة ، تتناوله من مبتداه إلى نهايته ، ونتأمل فى الظروف التى سبقته والتى عقبته . . .

لا شك أن عاصفة من الطغيان كانت تتلبد فى الأفق فى أواخر شهر أكتوبر عام ١٩٥٦ ، ونستطيع الآن أن ننظر إلى حادث اختطاف الزعماء الجزائريين بأنه علامة تنذر بانفجار هذه العاصفة ؛ فقد كان هذا الحادث بالغاً أحط مراتب اللؤم والدناءة ، وقد قابله العالم كله بأشد النقد والاستهجان . لم تشذ عن ذلك دولة سوى فرنسا الآثمة وبريطانيا شريكتها ، وإسرائيل حليفتها . وانقسم العالم كله قسمين منذ ذلك اليوم : كثرة عظيمة تستهجن الجريمة وتستنكرها ، وقلة ضئيلة تباهى بارتكاب الإثم والمنكر .

وكان يوم الأحد ٢٨ من أكتوبر الماضى يوم إضراب أعلنته

الشعوب العربية احتجاجاً على تلك الخيانة البشعة . . . ولم يكن يخطر لها أن جريمة أبشع وخيانة أشنع قد دبرت وتوشك أن تتكشف . . . ففى ذلك اليوم أرسلت حكومة واشنطن إنذاراً إلى رعاياها فى مصر وسورية والأردن وإسرائيل بمغادرة البلاد فوراً ؛ فقد كانت تلك الحكومة تعلم أن إسرائيل تقوم بتعبئة قواتها ، وإن كانت تجهل مبلغ ما وصلت إليه تلك التعبئة كما تجهل أغراضها على وجه الدقة . وقد ظهر بعد قليل أنها كانت تعبئة تامة كاملة تتناول الرجال والنساء والأطفال ، وأنها كانت تجرى فى خفاء شديد ، بحيث كان الأشخاص يُدْعون بالبرق أو بالتليفون . . لأن إسرائيل ، وهى تبيِّت العدوان ، قد أعدَّت السكان لمثل هذه الحالات منذ شهور وأعوام . . .

ومن البداهة التى لا ينكرها أحد أن الذى يُبيِّت العدوان له ميزة على الآمن المطمئن القابع فى داره ؛ كما أن اللص والمغتال لهما ميزة التدبير والاستعداد والمفاجأة ، ولكن لو أن الأمر مجرد عدوان إسرائيل على مصر ، لتلاشت هذه الميزة بعد يوم أو بعض يوم ؛ لأن مصر لم تكن نائمة ولا غافلة ؛ ولكن العدوان الصهيونى لم يكن حادثاً مفرداً . ولو علم الصهيونيون أنهم سيقاتلون وحدهم ما فكروا فى تعبئة ولا عدوان ، على الأقل فى الوقت الحاضر .

لقد كان كاتب هذه السطور فى مدينة لاهور بباكستان مع زملائه من أعضاء المجلس التنفيذى لليونسكو حين طالعنا فى صباح يوم الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر نبأ اختراق القوات الصهيونية حدود سيناء فى اليوم السابق

أمام نقطة الكنتلا ، وتوغلهم بضعة عشر ميلا فى أرض مصر . ولما سألنى الزملاء عن رأيى ، قلت لهم : إن هذا ليس طريقاً يسلكه الجيش الصهيونى إذا كان غرضه أن يغزو أرض مصر بنفسه ؛ لأنه طريق فى الطرف الجنوبى من برزخ العقبة . فلو كان الجيش الصهيونى يعمل وحده ما تجرأ على الهجوم بعيداً عن قواعده إلى هذا الحد . . وقلت : إن أكبر ما أخشاه أن يصحب هذا الهجوم الجنوبىّ الإسرائيلى هجومٌ إنجليزى فرنسى من مكان آخر ، لعله أقرب إلى الشمال .

وبديهى أن يكون من السهل توغل القوات الصهيونية إلى عشرين أو ثلاثين كيلومتراً ، دون أن يلقوا مقاومة تذكر ؛ لأن هذه هى الخطة المرسومة للدفاع عن الحدود الشرقية ؛ فليس من المصلحة فى شىء أن توضع نقط قوية مزودة بالعدة الثقيلة والرجال على الحدود نفسها ، فتكون عرضة للغدر الصهيونى المفاجئ ولسهولة التجسس عليها من وراء الحدود كما حدث فى الصابحة والكنتلا من قبل . وفضلا عن ذلك فإن كل ميل يتوغل فيه الصهيونيون يبعدهم عن مصادر الإمداد ويزيد فى مشكلات النقل والتموين ؛ وهو لمصلحة الدفاع والهجوم المضاد . وهكذا توغل الصهيونيون إلى النخل ، ثم توقفوا انتظاراً للخطوة التالية التى يعلمون أنها آتية لا ريب فيها ، والتى لن تكون من عملهم . وقد وصف متكلم صهيونى عمل قومه بأنه : « أصغر من أن يسمى عملا حربيًّا وأكبر من أن يدعى عملا انتقاميًّا » .

الإنذار البريطاني الفرنسي

لم تمض أربع وعشرون ساعة على الزحف الصهيوني ، حتى وقف سير أنطوني إيدن رئيس الوزراء البريطاني في مجلس العموم في مساء يوم الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر يعلن أنه قد وجَّه إنذاراً إلى حكومتي مصر وإسرائيل، بأن القوات البريطانية الفرنسية ستحتلُ « مؤقتاً » مواقع رئيسة في كل من بورسعيد والإسماعيلية والسويس ؛ وطلب من الحكومتين « سحب » قواتهما إلى مسافة عشرة أميال شرق القناة (بالنسبة لإسرائيل) وغرب القناة (بالنسبة لمصر) مع وقف جميع الأعمال الحربية بحراً وبرًّا وجوًّا، ومع إنذار الحكومتين بإرسال رد على هذا الإنذار النهائي خلال اثنتي عشرة ساعة ، وإلا اضطرت الدولتان إلى استخدام القوات اللازمة لتنفيذ شروط الإنذار .

ألقى رئيس الوزارة البريطاني إعلانه هذا على برلمان اكتظ بمن فيه من الأعضاء والزائرين ؛ لأن الجميع كانوا يتوقعون إعلاناً مسرحيًّا كهذا ، ولعل كثيراً من الأعضاء وغير الأعضاء كان يعلم طرفاً مما يبيِّته العدوان : فقد نشرت جريدة التيمس برقية لمراسلها في تل أبيب ، أرسلت يوم ٢٩ من أكتوبر عندما بدأ العدوان الإسرائيلي يقول فيها : إن مصدراً صهيونيًّا كبيراً أكد لمراسل التيمس اللندنية — أن الحكومة البريطانية أصبحت تنظر إلى سياسة إسرائيل ونياتها وخططها بعين « العطف » .

ويريد وزير بريطانيا الأول أن يقنع العالم ، بأن هذا القرار الهائل

بتوجيه إنذار بالتدخل المسلح فى مصر الذى ينطوى على أخطار جسيمة للعالم كله ، والذى يحمل فى طياته جرثومة الحرب العالمية الثالثة — هذا القرار الضخم الهائل ، قد اتخذه جنابه على إثر حديث دار بينه فى صباح ذلك اليوم وبين رئيس وزارة فرنسا ووزير خارجيتها . وفى هذه الجلسة تم الاتفاق على كل شىء ، ورسمت الخطة ، وحشدت القوات استعداداً ، واتخذت قرارات بالغة منتهى الخطر : كاستخدام قوات حلف الإطلنطى فى العدوان على مصر ، وتجاهل حكومة أمريكا تجاهلا تامًّا .

إن أحداً لم يزعم يوماً أن سير أنطونى إيدن رجل يمكن أن يتهم بالذكاء والفهم ! وقد وصفه أحد كبار الساسة فى بلاده بأنه efirst-rate third-rater أى رجل من الطبقة الثالثة ، وتتمثل فيه صفاتها أحسن تمثيل ! ولكن مع التسليم بأن إيدن من ساسة الدرجة الثالثة ، فإن من الصعب أن نتصور أن يبلغ به الغباء حدًّا يتصور فيه أن الناس تصدق هذه الترهات التى يفوه بها ، ولم يكفّ عن ترديدها ، كأنه بذكائه المحدود يتوهم أن الترديد قد يلبس الزور رداء الحق !

فى هذا الإنذار العجيب تطالب بريطانيا وفرنسا من مصر أن تتراجع إلى الغرب من القناة ، وإلى إسرائيل أن تتقدم إلى الشرق من القناة . وبديهى أن الدولتين المعتديتين كانتا تعلمان تمام العلم أن مصر لن تقبل مثل هذا الإنذار ؛ لأن الإنذار لم يُصَغ هذه الصيغة إلا لكى ترفضه مصر .

كان بوسع هاتين الدولتين أن تنذرا إسرائيل بالعودة إلى ما وراء

الحدود ، وإلى مصر مثلا بوقف الأعمال العسكرية ؛ حتى لا يحدث تعطيل لسير الملاحة فى قناة السويس . ومن الجائز أن يكون لمثل هذا العمل نتيجة إيجابية . وقد يراه بعض الناس عملا منطقيًّا ، ويحاول اخرون تبريره ، لكن بريطانيا لم تكن تريد وقف العدوان الصهيونى ، بل كان هذا العدوان جزءاً لا يتجزأ من الخطة المرسومة للغزو الثلاثى لمصر ؛ وسنسرد فيما بعد قصة التواطؤ الثلاثى مستقاة من المصادر المحايدة .

الغزو الثلاثى

لسنا بحاجة لأن نشرح قصة الغزو الثلاثى بالتفصيل ، وحسبنا أن نورد خلاصة الأطوار الهامة لذلك الغزو فى كثير من الإيجاز إتماماً لفصول هذا البحث :

كانت الخطة المرسومة لهذا الغزو ترمى إلى أن يبدأ وينتهى ويتم كل شىء فى أثناء ثلاثة أيام أو أربعة أيام تحتلُّ فيها مصر ؛ وتسقط حكومة الثورة ، وتحل محلها حكومة ترضى عنها العناصر الرجعية ، فتقبل كل شىء يطلب منها ، ولا يجرؤ أحد ، حتى الأمم المتحدة أن يعترض ، ما دامت الحكومة « الشرعية » قد تكونت وقبلت وباركت الغزو الثلاثى . ومتى تم تنفيذ الخطة على هذا النحو السريع اعترف الناس بالأمر الواقع ، ولا يكون هنالك وقت للتفكير فى حرب عالمية ؛ لأن الأمر انتهى بسرعة ؛ فلا معنى لأن تشنّ من أجله حرب جديدة .

سيقول العقلاء : ولكن هذه الخطة تنطوى على مغامرة ، وفى حالة الفشل قد تعود على الغزاة بالويل والثبور . ولكن هؤلاء العقلاء لم يكونوا هم الذين يديرون شئون فرنسا وبريطانيا ؛ ولذلك رسمت الخطة لكى يبدأ الغزو وينتهى قبل أن تفيق مصر أو يفيق العالم ويتحرك .

وتتألف هذه الخطة من ثلاثة عناصر أساسية :

أولا : غزو صهيونى فى جهة من سيناء يمكن التقدم فيها دون مقاومة .

والغرض من هذا الغزو الصهيونى أن يجتذب القوات المحاربة المصرية كلها إلى شبه جزيرة سيناء ، تاركاً البلاد لقمة سائغة للملتهم .

ثانياً : غزو مصر من الجو بآلاف الطائرات من أحدث طراز مخصص لقوات الحلف الإطلنطى ، وتعطيل القوات الجوية المصرية ، مع ضرب الجيش المصرى من الخلف ، وهو يحاول التراجع من سيناء .

والغرض من هذا أن تكون مصر عزلاء عديمة المقاومة . أو لعلها — طبقاً لما جاء فى النشرات الملقاة من الجو — أن تسقط الحكومة ، وتفتح أبوابها للغزاة على الرحب والسعة !

ثالثاً : تنزل القوات المعتدية على أرض ذهب جيشها إلى سيناء ، وسقطت حكومتها ، فتحتلها بقوات من الجو ومن البحر ، وتنزل منزلا آمناً مطمئناً لا يزعجها شىء خصوصاً بعد أن يتم لها تحطيم محطة « إذاعة صوت العرب » .

هذه هى العناصر الثلاثة التى تتألف منها تلك الخطة ، وأكبر الظن أنه كان مقدراً لكل خطوة يوم كامل من أربع وعشرين ساعة . وكان

هذا فى نظر المعتدين وقتاً كافياً لإتمام الخطة قبل أن يفيق العالم من غشيته ، فلا يأتى اليوم الثانى من شهر نوفمبر ، حتى يكون كل شيء قد تمّ على ما يرام . . . وإذا احتاج الأمر إلى يوم آخر لم يكن فى هذا كبير بأس ؛ لأن أمريكا فى أسبوع الانتخابات مشغولة ، بل منهمكة فى تطاحن الأحزاب ، والأمم المتحدة « حبلها طويل » ، أما الاتحاد السوفيتى فقد سبق للصحف البريطانية أن أكدت أن مسألة القناة لا تهم روسيا كثيراً .

هكذا حسب البريطانيون والفرنسيون حسابهم ، وأقدموا على جريمتهم التى سبق تدبيرها والاستعداد لها منذ زمن طويل . وكلنا نعرف أن قليلا من هذا التدبير قد تحقق . ومصر تعذر إذا لم تستطع أن تتصور إقدام إنجلترة وفرنسا على اقتراف مثل هذه الحماقة ، ولذلك بادرت مصر بحشد جيشها فى سيناء ، حيث التقى هو والعدو فى العجيلة ، فنكل بالصهيونيين أشد تنكيل وألحق بهم الهزيمة المنكرة فى طليعة شهر نوفمبر ، ولكن القيادة المصرية بادرت ، فأمرت الجيش المنتصر أن يتراجع إلى غرب القناة للدفاع عن مصر ، فتراجع معظمه فوراً ، لأن البلاد الآمنة تعرضت لعدوان صارخ من قوات جوية تعد وحداتها بالآلاف . وكان لا بد أن يرتدّ الجيش من سيناء للدفاع عن مدن مصر من جهة ، وحتى لا يتعرض للضرب من الخلف بقوات العدوان من جهة أخرى . ولا شك أن قرار التراجع كان حكيما ، وأنه أفسد على العدو خطته ، وقد بقيت قوات تحارب لتعوق تقدّم العدو الصهيونى الحقير .

وبعد أن تراجعت القوات المصرية . وأخلت سيناء ، تقدمت القوات الصهيونية واحتلت شبه الجزيرة ، كما احتلت قطاع غزة . ثم أخذ الصهيونيون جميعاً يرقصون ويطبلون ويزمرون ، ويحسبون أنهم أحرزوا نصراً باهراً ، وصاح صائحهم أنهم لن يخرجوا من سيناء بحال من الأحوال ، أيًّا كانت القوات التي تحاول إخراجهم . وصفق برلمانهم طرباً لهذه الصيحات ، وأعلن أن مساحة جديدة من الأراضي تعادل ضعف مساحة فلسطين المحتلة قد ضمت بصفة نهائية قاطعة إلى الوطن الصهيوني .

وفي اليوم التالي ثاب بعض الرشاد إلى بعض العقول ، وأعلن زعيم الصهيونيين أنه سيبدأ بإخلاء سيناء في وقت قريب .

* * *

هذا ما كان من أمر الصهيونيين . أما ما كان من أمر حلفائهم الإنجليز والفرنسيين ، فإنهم بعد أن قاموا بتخريب المدن والقرى بقدر ما وسعهم التخريب ، وأيقنوا أن « الجو » قد خلا لهم تماماً أخذوا يهاجمون منطقة القناة من ناحيتي السويس وبور سعيد .

أما من ناحية السويس ، فلا بد لنا أن نفترض أن وجود أسطول بريطاني في مياه السويس في تلك الآونة نفسها ، كان محض « صدفة » . وأنه لم يرسل عمداً ليكون هنالك وقت العدوان المدبر ! لا بد أن يكون وجود أسطول السويس من المصادفات ؛ لأن رئيس وزراء البريطانيين بلغ من بلادة الذهن ، ما يجعله يتوهم أن جميع الناس حظها كحظه من الذكاء !

ومهما يكن من أمر فإن الإغارة على السويس منيت بالفشل التام

منذ اللحظة الأولى ؛ لأن البطاريات الساحلية المصرية وحدها ، كانت كفيلة بأن تلحق بالأسطول المغير هزيمة ساحقة ، رجع منها يلعق جراحه الدامية .

أما الطرف الشمالى من القناة ، فهو الميدان الخالد ، لم تخلده أعمال العدوان ونذالة الغزاة بل خلده دفاع المصريين جنداً ومتطوعين : رجالا ونساء وأطفالا . فقد شرع المعتدون فى اليوم الخامس من نوفمبر ينزلون بالمظلات فيتلقفهم السكان وأكثرهم عزْل ، فيوردونهم حتفهم ، ثم تكاثر الساقطون بالمظلات ، فأفلت عدد منهم ، ولكن الغزو بالمظلات قضى عليه بالفشل ! وأدركت هذا قيادة العدو ، فأخذت تطلق القنابل الضخمة والنيران على المدينة العزلاء التى قضى اتفاق القناة أن تكون عزلاء ، ولذلك لم تكن لها بطاريات ساحلية ذات خطر ، فأمكن العدو أن ينزل إلى البر ، وأن يتسلل إلى المدينة . . وعلى الرغم من صدور الأمر بوقف إطلاق النار فى اليوم السابع من نوفمبر تجاهلت القوات المعتدية هذا الأمر ، وأخذت تتم احتلالها لبور فؤاد حيث نزل الفرنسيون ، وبورسعيد وما يليها جنوباً لمسافة عشرة أميال ، حيث نزل الإنجليز .

إن بورسعيد دفعت ثمن بطولتها ، والبطولة ثمنها غال فى كل وقت ومكان ؛ فإن نفساً طاهرة واحدة من الآلاف التى قضت فى بورسعيد تعادل ألفاً من نفوس الغزاة الدنيئة . وليس المقام هنا متسعاً للإسهاب فى وصف دروس البطولة المجيدة التى ألقتها بورسعيد أمام العالم فإنها قصة تتطلب مجلداً ضخماً .

وبعد وقف إطلاق النار ، أخذت قصة الغزو الفاشل تنطوى . ولكن فى شىء من البطء . فقد صدر الأمر ، لا بوقف إطلاق النار فقط ، بل صدر الأمر أيضاً بالانسحاب فوراً ، فأخذا الأعداء المعتدون يبطئون فى تنفيذ أمر الانسحاب ، بل أخذ بعضهم يثبت أقدامه باستيراد جند آخرين وذخيرة وعدّة حربية ، وزعم القائد البريطانى أن الانسحاب فى عشرين أو ثلاثين يوماً لا يتفق مع ما سماه الكرامة العسكرية . ولذلك قرر المعتدون أن يجلسوا فى بورسعيد ويثبتوا أقدامهم ، زاعمين أنهم لا بد لهم أن يقوموا بتطهير القناة ، وأنهم قد بدءوا فى ذلك فعلا ، فلا بد لهم أن يتموا ما بدءوا فيه ! كان هذا زعمهم ، ولكن شواهد الحال تدل على أن ما اتخذوه من إجراء لتثبيت أقدامهم فى بورسعيد كان يرمى بلا شك إلى هدف آخر ، وإلى عدوان جديد يتمكنون به من أن يوسعوا منطقة الاحتلال نحو الجنوب . لأن مركزهم وسط بحيرة المنزلة فى مساحة ضئيلة من الأرض كان مركزاً حرجاً للغاية . . . كانوا فى بقعة صغيرة من الأرض ، يحيط بها الماء من كل صوب عدا طريق ضيق يمتد نحو الجنوب ، ليس التقدم فيه بالأمر السهل . والقناة — إذا أرادوا اتخاذها ، مخرجاً نحو الجنوب — قد امتلأت بالسفن الغارقة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، وإن حاولوا الزحف فى الطريق الممتد على طول القناة ، تعرضوا لكارثة محققة ؛ لأن أشبال مصر كانت رابضة على طول الطريق تتربص بهم الدوائر . فإذا أرادوا استخدام الطائرات ، فإن الموقع لم يكن به سوى مطار الجميل المحدود الذى لا يصلح لمثل هذا الغرض .

وهكذا كان الجلاء أمراً لا بد منه ولا مفر ، سواء أكان يتفق مع الكرامة أم لم يتفق . ولم يكن التشبث الذى شهدناه مدة أسبوعين أو ثلاثة سوى رد فعل طبيعي للشعور الممض بالفشل ، والإحساس بأن كل تلك الصيحات الأولى التى نادت بضرورة احتلال السويس والإسماعيلية وبورسعيد قد ذهبت هباء ، وأن قادة السياسة البريطانية والفرنسية لا بد لهم أن يشربوا كأساً فى مرارة العلقم والصاب .

وارتاع إيدن حين بدا أمامه شبح الفشل فاغراً فاه ، فأصابه انهيار عصبى ، وسافر ليعالجه فى جزيرة جمايكا على بعد خمسة آلاف من الأميال ، تاركاً لمساعديه أن يفعلوا ما فى وسعهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . وفى اليوم الرابع والعشرين من نوفمبر اتخذت الأمم المتحدة قراراً مجدداً يقضى بأن يجلو المعتدون فوراً عن مصر ، ولوحت الولايات المتحدة للمعتدين باستعدادها لإمدادهم بمقدار لا بأس به من النفط إذا ما بادروا بالإذعان والامتثال . فطار وزير الخارجية البريطانية سلوين لويد من أمريكا ، وأعلن فى برلمانه أن حكومته ستبادر بالجلاء عن مصر ، وترجو أن يتمّ ذلك فى وقت قصير . وتبعه المدعو بينو وزير الخارجية الفرنسية ، فأدلى بتصريح مشابه كحذوك النعل بالنعل ! . . .

ولم تحاول بريطانيا وفرنسا التلكؤ هذه المرة ، بل بادرت القوات بالانسحاب ، وتم جلاء القوات فى مساء يوم ٢٣ من ديسمبر ، بعد أن قضت فى هذا الاحتلال ثمانية وأربعين يوماً ، لم تنعم فيه قوات الاحتلال بالراحة ولم يغمض لها جفن ، بل كان يؤرقها ليلا ويزعجها نهاراً جهاد

الفدائيين ، وما يصبه العالم على رءوسهم من اللعنات . . .

وتلكأت إسرائيل فى التراجع ، وجعلت القوات الدولية تقتفى أثرها ، وهى ترتد فى بطء شديد ، وتخرب وتدمر ما يصل إلى يدها ، فى أرض ليس فيها لها مجال كبير للتخريب والتدمير . ولعل الصهيونيين كانوا يريدون أن يستفزوا مصر لكى تهاجمهم أو تخرق اتفاق وقف إطلاق النار . ولكن هذه المحاولة قد باءت أيضاً بالفشل .

وهكذا انتهى ذلك الغزو العظيم بجيوشه الجرار وأساطيله الضخمة ، وأسرابه الجوية التى يخطئها العد . باء ذلك الغزو بالفشل الهائل الذريع بعد أن اشتركت فى تدبيره دولتان تعدان فى نظر نفسيهما من الدول العظيمة ، ومعهما دويلة أخرى تسخرانها لأوطارهما . بعد أن تآمرت الثلاث فى الظلام على القيام بهذا العمل المؤكد النجاح ! . . . ولهذا التآمر قصة نروى للقارئ خلاصتها :

قصة المؤامرة

تواطأت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على ارتكاب ذلك الجرم البالغ منتهى الدناءة والإثم . ومع أن جميع الشواهد صارخة بوقوع هذا التواطؤ ، فإن إيدن وزملاءه فى الإجرام أخذوا ينكرون بمنتهى العنف هذه التهمة الثابتة . وسبب إمعان الإنجليز فى إنكار هذا الأمر الواضح وضوح النهار ، أن الإغارة على مصر هى فى نفسها جريمة فظيعة تنطوى على كل

خيانة وغدر ، ولكن التواطؤ مع إسرائيل ، وطعن مصر من الخلف ، يمثل عدة جرائم تبلغ منتهى الخسة والدناءة . لذلك كان سخط العالم شديداً على الإنجليز فى المكان الأول ، وعلى الفرنسيين فى المكان الثانى ... لما ارتكبوه من الكذب والنفاق والبهتان بادّعائهم أنهم يتدخلون لوقف الحرب بين مصر والصهيونيين ، مع أنهم هم الذين شبّوا هذه الحرب ، وساعدوا على قيامها ، وفى البرلمان الإنجليزى معارضة قوية تتربص بالحكومة الدوائر ، وتوجه إليها التهم؛ ولذلك لم يجد إيدن وعصابته بدّاً من التمساك بحبل الكذب ، وإن كان حبلا واهياً . ومن سوء حظ الإنجليز أن الفرنسيين لم يبذلوا مجهوداً كبيراً لإخفاء ذلك التواطؤ ، حتى بدرت من ساستهم عبارات توشك أن تكون اعترافاً بأن المؤامرة قد دبرت عن عمد وسبق إصرار .

قيل للساسة الإنجليز : إن ما تزعمون من عدم التواطؤ أمر لا يقبله عقل ؛ فإن تدخلكم كله كان لمصلحة إسرائيل : طلبتم منها أن تتقدم إلى القرب من ضفاف القناة ؛ وبادرتم بالإغارة على مصر وحدها ، وإشاعة الدمار فى مدنها وقراها ، وكانت إذاعتكم موجهة ضد حكومة مصر ، تطالبون من المصريين أن يسقطوها ، وإلا أنزلتم بهم الويلات . واستخدمتم فى الهجوم على مصر قوات « منظمة حلف الأطلنطى » ، ومثل هذا العمل يتطلب تفكيراً وتدبيراً ولا يكون وليد الساعة ، وظهر لكم أسطول فى مياه السويس على إثر تقديم الإنذار ، ومثل هذا لا يمكن أن يحدث بمحض الصدفة .

وعلى الرغم من هذا كله وقيام الأدلة الدامغة أصرّ إيدن ورهطه على إنكار تهمة التواطؤ لشناعتها وبشاعتها ، وقد نشرت مجلة "تايم" الأمريكية، وجريدة "نيوزكرونكل" الإنجليزية وغيرهما من الصحف شرحاً وافياً لذلك التواطؤ . وكيف بدأ التفكير فى العدوان على مصر مباشرة أول الأمر ، وانتهى إلى خطة التواطؤ مع إسرائيل وطعن مصر من الخلف . ويبدو أن فرنسا كانت البادئة فى هذا الميدان ؛ إذ كانت تنقم على مصر تدخلها فى شئون الجزائر . وبعد تأميم القناة بأيام قلائل سافر وزير الدفاع الفرنسى إلى لندن لرسم خطة مشتركة لاحتلال منطقة القناة ؛ وأنشئت فعلا هيئة مشتركة لرسم الخطط والتنسيق ، وفى أثناء عقد المؤتمرات واجتماعات الساسة فى لندن — ولم يكن يقصد بها سوى التسويف — حشدت الجيوش فى قبرص ، ودهنت الدبابات بلون أصفر مشابه لرمال الصحراء ، وطبعت عملة لتستخدم فى الجهات التى يتم احتلالها . وكل هذه الاستعدادات كان هدفها مصر . وفى هذه المرحلة لم يكن لإسرائيل مكان فى تلك الخطط .

وكان فى فرنسا من قبل عصابة تنادى بمحاربة مصر والعرب بوساطة إسرائيل ، وكانت الأمور تجرى بسرعة فى هذا السبيل . ولذلك لم تلبث فرنسا أن تحولت إلى فكرة إشراك إسرائيل بعد أن قررت العدوان . ودعت فرنسا الإرهابى الصهيونى مناحيم بيجن زعيم حزب هروت المتطرف ، لأن يلقى خطاباً أمام الجمعية الوطنية ؛ ومع أن بيجن زعيم المعارضة فى إسرائيل. فلا شك أن الترحيب به فى البرلمان الفرنسى كان بموافقة حكومته ،

ودليلا على اتجاه حكومة إسرائيل وجهة العدوان بمعاونة فرنسا ومؤازرتها ، وبادرت فرنسا فأرسلت سراً إلى الصهيونيين ثلاثين من طائرات مستير فوق ما سبق إرساله من قبل . ولم يتمالك بن جوريون أن أعلن فى ٢٣ من سبتمبر أن إسرائيل قد وجدت أخيراً حليفاً مخلصاً .

وزعمت صحيفة تايم أن إنجلترة لم تساهم فى المرحلة الأولى من هذا التواطؤ وظلت بمعزل عنه ، ولكن الصحيفة كعادتها حسنة الظن بالبريطانيين فليس مما يقبله عقل أن تكون فرنسا منهمكة فى تدبير خطة الهجوم على مصر مع بريطانيا ثم تدخل فيها عنصراً جديداً وهو إسرائيل دون أن تخبر شريكتها سراً . والأرجح أن الإنجليز كانوا على علم تام بما جرى مدركين أنه عمل قذر ولذلك طلبوا من فرنسا أن تمضى فيه وحدها أول الأمر .

وفى يوم ١٦ من أكتوبر طار إيدن ولويد إلى باريس واجتمعا هما وموليه رئيس وزراء فرنسا وبينو وزير خارجيتها . اجتمع الأربعة وحدهم ليس معهم خبير أو مشير ودام الاجتماع خمس ساعات بمنتهى السرية ؛ لأن الجرائم الكبرى لا يمكن أن تحاك إلا فى حالك الظلام . والظاهر أن إسرائيل كانت تحدثها نفسها بأن تشهر ما سمته حرباً « وقائية » . وقد لقيت التشجيع التام للإقدام على هذه الحرب ؛ ورحبت إسرائيل بالطبع ، على أن تكون تلك الحرب جزءاً من جريمة كبيرة تساهم فيها دولتان كبيرتان بمواردهما الضخمة وأساطيلهما والعدد الحديثة لمنظمة شمال الأطلنطى .

وتقول مجلة تايم : إن الإنجليز والفرنسيين أخذوا منذ ذلك التاريخ

يضللون الولايات المتحدة فى كل ما يتصل بهذا الموضوع . فلم يخبر إيدن الأمريكيين بشىء عن الخطة التى يوشك أن ينفذها ، كما أنه لم يخبر حكومات الكمنولث ولا البرلمان . والراجح أن سلوين لويد كان وحده الملم بتفاصيل الخطة . وقبل ارتكاب الجريمة بأيام قلائل رأى لويد هذا من المناسب أن يبلغ الولايات المتحدة أن هناك خطة جديدة لحل سلمى لمشكلة قناة السويس ؛ كما أعلن أن المرجح أن يجتمع المصريون والإنجليز والفرنسيون فى جنيف فى يوم ٢٩ من أكتوبر لهذا الغرض . أى فى اليوم الذى تقرر أن يرتكب فيه العدوان !

وقد دبر المتآمرون أمرهم وأحكموا تدبيره ، واختاروا للعدوان الموعد الذى حسبوه شديد الملاءمة ، إذ كانت أمريكا منهمكة فى انتخابات الرياسة، ولا تجرؤ على عمل شىء ضد إسرائيل فتخاطر بأصوات اليهود ، وإذ كانت روسيا فى ظنهم منهمكة فى شئون المجر . وقيل إن الإنجليز كانوا مؤمنين بأن أيزنهاور لن يفوز فى الانتخابات . ولذلك لم يعبئوا كثيراً بما قد يترتب على إخفاء إجرامهم وتواطئهم . وكان أيزنهاور فى وشنطن عند ما بلغه نبأ العدوان الصهيونى على مصر . فأعلن « أن الولايات المتحدة ستفى بالتزاماتها فى الاتفاق الثلاثى المبرم عام ١٩٥٠ بأن تقف فى وجه العدوان بالاشتراك مع الزميلتين بريطانيا وفرنسا » . أما نبأ الإنذار والعدوان البريطانى الفرنسى ، فلم يسمع به الرئيس الأمريكى إلا من آلة تسجيل الأنباء . وأدرك الساسة الأمريكيون بعد لأى أن اتفاقية ١٩٥٠ ما هى إلا وثيقة ميتة .

ودعا مستر دلس سفيرى إنجلترة وفرنسا عقب العدوان الإسرائيلى مباشرة لمشاورتهما فى ضرورة عقد مجلس الأمن ، فأخذا يتملصان ويلتمسان لمعاذير للتسويف ، طبقاً لما لديهم من الأوامر بالعمل على تأخير هذه الخطة حتى يبلغ الإنذار مصر .

ولم تلبث أمريكا أن أدركت عن طريق آخر ، أن بريطانيا حريصة على أن يستمر العدوان الإسرائيلى . ودعا سلوين لويد السفير الأمريكى فى لندن صباح الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر فى ساعة مبكرة . وطلب منه أن تحذف أمريكا من اقتراحها أمام مجلس الأمن أى وصف لإسرائيل بأنها معتدية ! ومع أن بريطانيا كانت تنوى توجيه إنذار لمصر بعد بضع ساعات ، فإن لويد لم يشر بكلمة عن هذا الإنذار للسفير الأمريكى .

وفى ظهر يوم الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر ، وهو الموعد الذى سبق تحديده من قبل ، وجهت بريطانيا وفرنسا الإنذار إلى مصر . وافتضح للعالم كله سر ذلك التواطؤ الدنىء الذى حاول إيدن عبثاً إنكاره . ولما رأى أن الاتهام بالجريمة من الوضوح بحيث لا يمكن التنصل منه ، أخذ هو وأنصاره يوجهون لمصر تهماً جديدة بادية البطلان ، فلم تجد هذه من يصدقها . ولقد قيل : إن افتضاح جريمة إيدن بعد بذله كل تلك الجهود لإخفائها ، كان من أهم أسباب الانهيار العصبى الذى أصابه . . .

أسباب العدوان

إن البحث عن أسباب لذلك العدوان ليس بالمطلب اليسير ؛ فإن التفكير فى مثل تلك الأسباب معناه أننا نتهم الذين دبروا هذا الجرم بأنهم قوم يفكرون ويعقلون، ويزنون الأمور ، ولا يصدرون فى أعمالهم إلا عن روية وتدبُّر . مع أن جميع المجرمين المعتدين لا يدفعهم إلى إجرامهم سبب حقيقى ، اللهم إلا طبع الإجرام المغروس فى نفوسهم . ومع ذلك فإننا ما دمنا بصدد دراسة ذلك العدوان الثلاثى من جميع نواحية فلا بد لنا أن نقف مليًّا لنفكر فيما عسى أن يكون هنالك من أسباب قد يراها بعض الناس أو يذكرها على سبيل التهوين من فداحة الجريمة .

فأما الصهيونيون فقوم اشتهروا بالكذب والخداع وقول الزور . ومن العبث أن نقيم وزناً لما يقولون . إن خلاصة مزاعمهم أنهم لم يقدموا على ما أقدموا عليه إلا اتقاء لما قد تنزله بهم الدول العربية من الضربات فى المستقبل . ولذلك كثر كلامهم عن الحرب الوقائية . مع أن المعروف أن العدوان كان ديدنهم منذ قامت لهم قائمة ، والغدر طبعهم ، وكثيراً ما أظهروه على حدود الأردن وسورية ومصر . . . وليس من الممكن لدولتهم أن تعيش فى أمن وهدوء ، ما داموا يرون أن البلاد التى يمثلونها يجب أن تزداد رقعتها على مضى الزمن ، وأن تستوعب مئات الآلاف من المهاجرين ؛ حتى تمتد أراضيهم من الفرات إلى النيل . لذلك أنفقوا

مئات الملايين في اقتناء السلاح ، وأعدّوا جيشاً من الرجال والنساء لا يقل باعترافهم عن ربع مليون من المقاتلين .

إن كل ما كان ينقص الصهيونيين ليرتكبوا ما ارتكبوه هو الفرصة . وقد أتاحتها لهم فرنسا وإنجلترة . ومع أن الفرنسيين والإنجليز يزعمون أن إسرائيل كانت ستهاجم مصر على كل حال ، فإن هذا قول هراء ، والحقيقة التي لا شك فيها هي أنه لولا الخيانة الفرنسية البريطانية ، ما تحرك الصهيونيون للدخول في مغامرة لا بد أن تنتهي بسحقهم ومحقهم .

فمفتاح الجريمة إذن هو السياسة الفرنسية البريطانية . وإذا أردنا أن نفتش عن أسباب لذلك العدوان الفاشل ، فأولى بنا أن نبحث عنه لدى تَيْنِ الدولتين . ولا بد لنا أن نذكر أن كلتا الدولتين قد خرجت من الحرب العالمية جريحة مضعضعة ، وقد استحالت كل منهما إلى دولة من المرتبة الثانية أو الثالثة ، مع أن ذكرى أيام العظمة لم تزل عالقة بالأذهان . . . وفرنسا بوجه خاص قد احتل بلادها العدوّ وداسها بأقدامه وأذلها . وحاولت أن تستعيد مجدها فإذا هي تلقى الهزائم المنكرة في بلاد الهند الصينية وتضطر للانسحاب والتسليم . واضطرت في شمالي أفريقية لأن تصطنع اللين والمهادنة ، وللاعتراف باستقلال مراكش وتونس . كذلك ذاق الإنجليز هزائم منكرة في بلاد الملايو وفي شرقي إفريقية على أيدي الماو ماو ، وإلى التسليم بالجلاء عن السودان ومصر ، إلى ارتباك شديد في أحوالهم المالية والاقتصادية ، وهم ينظرون بعين الحسد إلى ما تتمتع به ألمانيا وإيطاليا من الرخاء والثراء ، مع أنهما هزمتا في الحرب العالمية الثانية

وصفوة القول أن كلا من الدولتين كانت تنوء تحت عبء ثقيل من مركب النقص ، وتتوق كل منهما إلى عمل تسترد به مكانتها فى المحيط الدولى ، بالانتصار فى حرب تحشدان لها جميع ما لديهما من عدة حربية وما تختلسانه من « منظمة شمال الأطلنطى » ، ضد خصم تتوهمان أنه ليس بذى خطر .

إن مركب النقص هذا هو الدافع القوى على هذه المغامرة ، وهو السبب الحقيقى لارتكاب ذلك الجرم الشنيع . ومع ذلك فإننا لا ننتظر من الشريكتين أن تعترفا بأن هذا هو السبب الصحيح . ولذلك نراهما تصرخان بأعلى صوت ، وتستخدمان وسائل الدعاية للترويج لما أسمتاه أسباب حملتهما على ارتكاب ما ارتكبتا من الإثم :

فأما فرنسا فزعمت أن مصر لا يحق لها أن تؤيد الثائرين فى الجزائر أو تبذل لهم أية معونة ، مهما أنزلت بهم من الويلات ، وسفكت من الدماء ، وارتكبت من الخيانات . أرادت فرنسا من العالم العربى بعامة ومن مصر بخاصة أن ينكروا عروبتهم وأن يكبتوا شعورهم ، وألا يتحركوا لما ينزل بإخوانهم من البلاء . أراد الفرنسيون من العالم كله ومن الشعوب العربية بوجه خاص ، أن تخلى بينهم وبين شعب الجزائر ، حتى يتم لها سحقه وإخضاعه .

كان بوسع فرنسا أن تلتمس وساطة مصر أو غيرها من الدول العربية للوصول إلى تسوية سلمية فى الجزائر . ولكن مركب النقص أبى عليها أن تلجأ إلى وسيلة سوى القوة والقهر . فلما رأت أن هذه الوسيلة لا تنيلها

مأرباً ، ولا تدنيها من الانتصار على المجاهدين فى الجزائر . أخذت تشكو من تدخل الحكومات العربية ومن حكومة مصر بوجه خاص ، وأخذت مراجل غيظها تغلى ، وتزداد مع الأيام غلياناً .

أما إنجلترة فكانت تنقم على مصر أنها ناهضت المصالح الاستعمارية البريطانية ، سواء فى شرق إفريقية أو الشرق الأوسط . فأما فى شرق إفريقية فإن مصر أبدت عطفها على حركة الماو ماو ، ونظمت إذاعة باللغة السواحلية لإثارة الهياج فى سكان تلك الأقاليم . ولم تكن مصر وحدها التى تعطف على الماو ماو ، وليس مما يقبله العقل أن مجرد عبارات واردة فى إذاعة ، تدفع شعوباً تبعد عنا آلاف الأميال إلى الثورة والهياج ، وكان الأجدر بالبريطانيين أن يسلموا بالحقيقة التى لا مفر منها ، وهى أن الاستعمار مشرف على الزوال ؛ وأن المسمار الذى تدقه مصر فى نعشه ليس إلا واحداً من آلاف المسامير .

ولعل أكبر ما أثار الضغينة والحقد على مصر فى نفس الإنجليز ، هو نجاح السياسة العربية التى تتبعها مصر ، وفشل سياسة حلف بغداد التى بذلت بريطانيا أقصى جهودها لنصرته وتأييده ، لقد كان حلف بغداد عملا استعمارياً مكشوفاً . وأولادنا فى المدارس ، بل رجال الشارع يدركون أن هذا المشروع لا يرمى إلا لإقامة النفوذ البريطانى فى الشرق الأوسط . والصحف البريطانية لا تنكر ذلك ، وكثيراً ما تتحدث بأن الشرق الأوسط منطقة نفوذ بريطانية . وقد خرج هذا النفوذ من الباب فلا بد له أن يعود من النافذة : نافذة حلف بغداد . وأراد الإنجليز أن

يكرهوا حكومة الأردن وسورية ولبنان على الانضمام إلى ذلك المشروع الاستعمارى . ثم أدهشهم أن هذه الأقطار ، حكوماتها وشعوبها ، لديها من الإدراك والفهم ما مكنها من رفض ذلك المشروع ورد دعاته على أعقابهم ؛ كأن كل العالم يجب أن يكون فى مثل غباوة إيدن وعصابة إيدن . ولم يكن بد من أن تلتمس حكومة الإنجليز سبباً لفشلها هذا ، فلم تجد سوى مصر تتهمها بأنها هى التى أفسدت حلف بغداد، وكشفت عن مخازيه النقاب ، مع أن مخازيه بادية للعيان ، يراها كل إنسان فى مشارق الأرض والمغارب .

أما مشكلة القناة فأوهى من تلك الأسباب جميعاً ، وقد كانت القناة فى أحسن حال تؤدى وظيفتها على أحسن وجه ، حتى عطلها العدوان الغاشم .

فلا مراء فى أن الدوافع التى دفعت بريطانيا وفرنسا إلى ارتكاب ما ارتكبتا من جرم هى شهوات التملك والسيطرة يذكيها مركب النقص الناتج من الهزائم المتكررة ، وتقلص النفوذ القديم والعجز عن مسايرة الزمن ومجاراة التطور العالمى . والذى تتبع الصحف الفرنسية والإنجليزية فى الأشهر الثلاثة السابقة للعدوان ، لابد قد استرعى نظره — ولعله أدهشه — ما وجد فيها من الهستريا والحماقة الصارخة التى لم يكن بد من أن تسوق أصحابها إلى الكارثة . . وقد دبر إيدن وعصابته تلك الفتنة وهو يعلم أن عدوانه لن يكون على مصر وحدها ، بل سيحسه العالم العربى كله . ودول آسية وإفريقية ، والدول الشرقية بل الولايات المتحدة الأمريكية ،

ولكنه ظن أن فى وسعه أن يتجاهل هؤلاء جميعاً ، وأن يعيد عهد موبقات القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين .

وقد خيبت الأيام ظن إيدن وعصابته ، وأثبتت أن العدوان على مصر لم يكن ليرضى عنه منصف حتى حلفاء بريطانيا وكثير من دول الكومنولث .

ويجمل بنا أن نلخص هنا موقف كل من هذه الدول والهيئات المختلفة .

موقف الولايات المتحدة الأمريكية

لعل بريطانيا لم تكن تحلم أن أى عمل تعمله مهما كان وضيعاً دنيئاً سيثير اعتراضاً جدياً لدى حكومة واشنطن. ومع ذلك فإن ثقات الكتاب يجمعون على أن الغزو الثلاثى قد حفر بين أمريكا وبريطانيا هوة سحيقة . ولعل من الممكن أن نلخص ما أحفظ الولايات المتحدة من بريطانيا فى الأمور الآتية :

١ — إخفاء خطة الغزو كلها عن أمريكا مع بذل جهود لتضليلها .

٢ — التواطؤ مع إسرائيل على رسم خطة حربية مزرية لطعن مصر من الخلف .

٣ — اختيار وقت الانتخابات الأمريكية لارتكاب تلك الجريمة .

٤ – استخدام العتاد الحربى الأمريكى المقدم لمنظمة المحيط الأطلنطى ، دون إذن من أحد .

لهذا غضبت أمريكا ، واتجه غضبها بوجه خاص نحو حكومة إيدن ، ولعلها مثل أكثر الناس فى مختلف جهات العالم ، تلقى التبعة كلها على بريطانيا ، لأنها كانت تقود الحملة الفاشلة .

ومع ذلك فإن الرئيس أيزنهاور كان مقيداً فى تصرفاته بحكم انتخابات الرياسة ، ولم يستطع أكثر من أن يعلن سخطه على ما حدث ، والالتجاء إلى الأمم المتحدة . . . ونحن لا نظلمه إذا قررنا أنه هو – أو حزبه – كان حريصاً على أصوات اليهود الأمريكيين ، حتى لا تذهب إلى تأييد الديمقراطيين . ولو أن الهجوم الذى حدث قد قامت به مصر ، فأغارت على الأراضى التى يحتلها الصهيونيون فى فاسطين ؛ لكان للرئيس الأمريكى بلا شك موقف آخر أشد عنفاً وبطشاً .

وقد طالما أعان الرئيس الأمريكى أنه إذا اعتدى أحد الطرفين على الآخر بادرت أمريكا إلى مساعدة من وقع عليه العدوان ، وكان المفهوم دائماً من هذا العهد أن معناه تقديم المساعدة المادية والعون العسكرى . ولكن الرئيس أيزنهاور رأى أن يكتفى بأن تتخذ المساعدة صورة الالتجاء إلى الأمم المتحدة والاحتكام إليها . فهل يرجع هذا إلى أن الوقت وقت الانتخابات ، أو يرجع إلى أن المعتدين هم إسرائيل المدللة ، وبريطانيا الحليفة المفضلة ؟ ربما كان الأمر يرجع إلى مزيج من الاعتبارين . ومهما يكن من شىء فإن أمريكا نصرت قضية الحق فى كلٍّ من مجلس الأمن والجمعية العامة .

وقد قيل أيضاً — ونحن نرجح صحة هذا القول — إن أمريكا حبست النفط عن الإنجليز والفرنسيين مع توافره لديها ، حتّى يعدوا وعداً صادقاً بالجلاء الناجز عن أرض مصر ، وتصفية ذلك الغزو الفاشل .

موقف الاتحاد السوفيتّى

لئن كان موقف الولايات المتحدة يحيط به بعض الغموض — إن موقف روسيا وحلفائها لم يكن يشوبه أدنى غموض أو إبهام . وقد أدرك الإتحاد السوفيتى أن عودة البريطانيين إلى مصر سيمكن الاستعمار من أن ينفث سمومه ، ويعود إليه سلطانه وجبروته . ولئن سقطت مصر — لا قدر الله — إن العالم العربى لا يلبث أن تتداعى أركانه ويندك بنيانه . وسيكون لهذا كله أثره فى زعزعة كيان شرقى أوربا . إن روسيا تعلم أن مصر بريئة من النزعات الشيوعية ، ولكنها مع ذلك تقدر فى مصر موقفها الحازم فى وقف الاستعمار ، وإصرارها على اتباع سياسة ترمى إلى تحرير العالم العربى كله من غوائل المستعمرين .

لهذا أيدت روسيا مصر فى مجلس الأمن والجمعية العامة ، وطلبت من الرئيس أيزنهاور أن تقوم أمريكا وروسيا برد العدوان عن مصر ، فلم يستجب لها الرئيس الأمريكى ، فاضطر الرئيس السوفيتّى بلجانين إلى أن يتدخل بنفسه ، فأرسل فى ٦ من نوفمبر كتاباً إلى كل من رؤساء حكومات إنجلترا وفرنسا وإسرائيل . وهذا الكتاب يستحق — او اتسع

المجال — أن ينشر هنا من أوله لآخره . ولا شك أن هذا الكتاب السوفيتى كان هو نقطة التحول فى الغزو كله ، وحسبنا أن نذكر منه الفقرات الآتية : « إن العدوان الذى دبرته بريطانيا وفرنسا — وإن كانت البادئة بهإسرائيل — ينطوى على أخطار جسيمة للسلم العالمى . . . قضت الجمعية العامة للأمم المحدة بوقف القتال وسحب الجنود ، ولكنكم بدل الاستجابة تزيدون فى إشعال الحرب ، وتمعنون فى تخريب مصر وتقتيل أبنائها من المدنيين . . إن حكومة إنجلترة وفرنسا وإسرائيل قد شهرت على مصر حرباً عدوانية دون أى استفزاز . وما تزعمونه خاصا بالملاحة فى قناة السويس هراء وتضليل ، فقد ضمنت مصر حرية الملاحة فى القناة ، فإذا بعدوانكم يسدّ القناة ويعطل الملاحة . . إنكم تحاربون أمة عزلاء لا تملك الدفاع عن نفسها . . فهبكم حاربكم عدو أقوى منكم وأرسل عليكم صواريخ تدك مدنكم وتشيع الدمار فى أرضكم . . إنكم بلا شك ستعدّون هذا عملا وحشياً ... ولكن ما الفرق بين مثل هذا العمل وبين ما تفعلونه الآن ضد بلد كمصر توشك أن تكون عزلاء ؟ . . . إن العدوان على مصر إذا استمر قد ينتشر فى بلاد وأقطار أخرى ويتحول إلى حرب عالمية ثالثة . . . إن حكومة السوفيت مصممة تمام التصميم على سحق المعتدين بالقوة ، وعلى إعادة الأمن إلى بلاد الشرق . . . ورجاؤنا أنكم فى هذه اللحظة العصيبة ستبدون ما يلزم من التعقل والروية » .

هذه خلاصة لبعض فقرات من هذا الكتاب التاريخى الذى كان له الفضل الأكبر فى إرغام الإنجليز وشركائهم فى الإجرام على وقف

إطلاق النار عقب تسلم هذا الكتاب ؛ فقد كان المعتدون فى حالة من الهستريا يستحيل معها أن يفهموا أية لغة أخرى . وقد سئل الوزير الفرنسى بينو عن سبب انسحاب المعتدين من بورسعيد . فقال : « إن هذا يرجع إلى انقسام الشعب والبرلمان البريطانى ، وتعطيل الملاحة فى القناة وما ترتب على ذلك من مشكلات ، ومعارضة أمريكا ، وتدخل الأمم المتحدة ، وإنذار بلجانين » . والصحيح أن جميع هذه الأسباب كانت قائمة أو متوقعة ، والشىء الوحيد الجديد هو إنذار بلجانين .

وإذا وازنا بين موقف كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وجدنا أن موقف روسيا كان أكثر صراحة وقوة ، أما موقف الرئيس الأمريكى ، فكان موقف المحاذر ، الذى رأى نفسه يواجه فجأة بأن الدول التى كان يعدها صديقة وفية قد خانته ، وارتكبت جرائم لا يستطيع مهما تسامح وتهاون أن يقرّها عليها ؛ ورأى الدولة التى تعوّد أن ينظر إليها بوصفها العدو اللدود الذى لا يمكن أن يأتى عملا صالحاً ، رآها تتخذ موقفاً سليما لاغبار عليه . ورأى نفسه مضطرا للسير معها وتأييد موقفها فى مجلس الأمن ، ولعله كان يقسو على حليفتيه بلسانه لا بقلبه . أو لعله لم يستطع أن يتخلص من روابط الصداقة « التقليدية » حتى بعد أن ارتكب الصديق أفظع المنكرات . وقد تعودت أمريكا أن تقف مع إنجلترة ضد روسيا ، حتى إنها لم تستطع أن تبدل موقفها إلا بكثير من التحفظ والاحتياط .

وأمريكا فى هذا جد مخطئة : فقد استغلت الدولتان الاستعماريتان

هذه الصداقة التقليدية وأمعنت كل منهما فى ارتكاب المنكر ، وفى الانغماس فى الفظائع مع استيلائهما على المساعدات المالية الضخمة وتجنيهما الدائم على اليد التى تطعمهما وتغذيهما ! حتى سوّل لهما الغرور أنهما تستطيعان أن ترتكبا أى جرم دون أن يثير ذلك من الحكومة الأمريكية أكثر من كلمة تأنيب خفيفة لطيفة ! وقد طالعت قبل العدوان بوقت يسير مقالات للمسيو بينو ينذر أمريكا فيه بأن فرنسا ستتحول إلى الشيوعية إذا لم تبسط سيطرتها التامة على الجزائر ، وتظل دولة استعمارية قوية ! وأكبر الظن أن الساسة الأمريكيين — أو كثيراً منهم — صدق هذه الترهات ، ونسى أن حاجة الفرنسيين والإنجليز إلى المساعدة الأمريكية أجل وأعظم من حاجة أمريكا إليهم ، ولئن ظلت هذه الأوهام مهيمنة على عقول طائفة من الأمريكيين ذوى النفوذ إن كل ما تنفقه الولايات المتحدة من الدولارات ، لن يساعدها على أن تتبوأ فى السياسة العالمية المكان الذى تصبو إليه .

موقف الدول والشعوب العربية

عند ما اشتدت الضجة التى أثارها الفرنسيون والإنجليز حول تأميم القناة ، تساءلت إحدى الصحف الأمريكية عن احتمال قيام بريطانيا وفرنسا بعدوان مسلح على مصر ، وهل تستعين الدولتان الكبيرتان فى مثل هذا العدوان بإسرائيل ؟ فلم تتردد تلك الصحيفة فى التأكيد لقرائها

أن هذا مستحيل ؛ لأن مثل هذا الإجراء سيترتب عليه بلاشك خروج العراق فوراً من حلف بغداد . ذلك ما أكدته صحيفة أمريكية واسعة الانتشار ، ومع ذلك فإن العدوان قد وقع على مصر ، واستخدمت فيه إسرائيل لكى يزداد بشاعة وفظاعة . ومع أن هذا الأمر قد أثار سخط عشرات الدول خارج العالم العربى ، فإن دولة العراق لم تفعل أكثر من قطع صلاتها السياسية مع فرنسا . ولكيلا ينظر واحد إلى هذا العمل بأنه خطوة ذات خطر يجمل بنا أن نذكر أن العراق لم يكن لها تمثيل سياسى بفرنسا إلا منذ نحو عامين ؛ لأنها لم تكن لها بباريس مصالح تهمها رعايتها . وقد أكد لكاتب هذه السطور أحد رجال العراق المجاهدين أن إنشاء سفارة للعراق بباريس كان استجابة لحالة شخصية بحتة ؛ ولا بد من ذكر هذه الحقيقة حتى نقدر الخطوة حق قدرها؛ إذ من الجائز أن مثل هذا الإجراء كان متفقاً عليه من قبل . فهل كان هنالك تواطؤ مع العراق أيضاً يشبه — ولو من بعض الوجوه — التواطؤ الذى عقد ما بين إسرائيل وفرنسا وبريطانيا ؟ إن كثيراً من الكتاب قد أكد أن حكومة العراق ، أو رئيسها على الأقل ، كان على علم بالجريمة قبل وقوعها ، وأن طائرات بريطانية اشتركت فى الإغارة على مصر قد أقبلت من مطارات العراق ، حيث تزودت بالوقود والذخيرة . ويؤكد آخرون أن عدواناً آخر كان مقدراً له أن يتم على إثر نجاح العدوان على مصر ، ووجهته الأردن وسورية ، على أن تساهم العراق فى هذا العدوان . وقد قدمت الحكومة السورية للمحاكمة أفراداً اتهموا بالاشتراك فى إعداد مثل هذا الجرم.

لا شك أن ضم سورية والأردن إلى العراق فى دولة ثلاثية للهلال الخصيب مع تقليد الأمير عبد الإله عرش سورية كان حلماً أو خطة يشتهى تحقيقها عدد من ساسة العراق ، ولا شك أيضاً فى أن بريطانيا كانت تحبذ هذه الخطة وتؤيدها كل التأييد ، ولكن إذ كان هنالك ساسة كثيرون يتمنون قيام مثل هذه الدولة ، فإن قليلاً جداً منهم من يرضى عن قيامها بمثل هذه الصورة وفى مثل تلك الظروف . فإذا صح أن عدواناً كهذا قد رسمت له الخطط وأعدت له العدة ، فإن العدوان على مصر بدل أن يساعد على تنفيذها قد أفسدها تماماً . لأن الشعب العراقى قد أبدى السخط على العدوان الصهيونى البريطانى . وأظهر العطف على مصر شعبها وحكومتها ، وامتد سخطه إلى حلف بغداد وكل ما يتصل به حتى أدرك ذلك النفر القليل أن القيام بالعدوان الثانى بات فى حكم المستحيل بسبب هياج الشعب العراقى نفسه بقطع النظر عن أسباب أخرى لها وجاهتها .

وقد اضطرت حكومة العراق إلى اتخاذ كثير من الإجراءات لتهدئة الحالة : بعضها عنيف استخدمت فيه القوة ، وبعضها إجراء سياسى مثل وقف البرلمان ، وبعضها من قبيل التهدئة مثل إبداء بعض العطف على مصر ، والإشارة إليها بأنها « مصر المحبوبة » كما جاء على لسان رئيس الدولة فى الخطاب الذى ألقى بمناسبة وقف الحياة البرلمانية !

ولا حاجة بنا إلى إطالة الحديث عن موقف كل بلد عربى كما أطلنا الحديث عن العراق ، لأن حالة العراق هى الحالة الوحيدة التى تنطوى

على ظروف خاصة ، فهو القطر العربى الوحيد الذى لا تتفق فيه سياسة الدولة مع رغبات الشعب ؛ فإن شعب العراق كان فى طليعة الشعوب العربية حماسة ومن أشدها سخطاً على العدوان الثلاثى الدنىء ؛ أما الحكومة العراقية فلم تكن تجارى الشعب فى حماسته ، وكانت تفكر فى مصالح عدة معقدة وتحرص على مواردها من النفط أكثر من حرصها على أن تلعب دوراً خطيراً فى هذه الأزمة . ومن العجيب أننا نسمع أن رئيس حكومة العراق يريد أن يتولى قيادة العالم العربى . ولو أن هذا الزعم صحيح ، لكانت أمام ذلك الزعيم فرصة نادرة لأن يقود الرأى العام العربى فى اتخاذ إجراءات إيجابية ضد كل من إنجلترة وفرنسا وإسرائيل ، إنه كان يستطيع أن يكون له أعلى صوت فى إبداء السخط على عصابة البغى والإجرام ، متبرئاً منها ومن كل اتصال بها . ذلك ما كان ننتظره منه العالم العربى بل العالم بأسره ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك . وأكبر الظن أن فكرة الزعامة العربية ليست بالشىء الذى يهمه أن يناله ، بقدر ما يهمه أن ينال عطف الإنجليز ومودتهم !

وقد قام أبناء الشعب الأردنى بتحطيم أنابيب البترول الذى يأتى من العراق إلى حيفا ماراً بديارهم ، فما راعهم إلا أن رأوا البترول يتدفق من هذه الأنابيب بمقادير غزيرة . وعبثاً حاول أولو الأمر فى العراق أن يعتذروا بأن هذا البترول كان يقصد به تنظيف الأنابيب ، حتى لا يعلوها الصدأ . فإن أحداً لم يعر ذلك العذر اهتماماً ، ومن ذا الذى يهمه أن تظل هذه الأنابيب فى حالة جيدة ، مع أنها لا تغذى سوى إسرائيل ؟ لقد كانت

تلك حجة واهية لم يقبلها أحد فى أى قطر من الأقطار ، بل إن كلام الصهيونيين أنفسهم يكذبها .

وهكذا يبدو أن سياسة أولى الأمر فى العراق لم تتفق مع السياسة العربية عامة ، ولا مع رغبات الشعب العراقى الذى لم يكن يقل فى عاطفته العربية الخالصة عن أى شعب عربى آخر . . .

والمقام لا يسمح — ولا أحسب بالقارئ حاجة — لأن أسهب فى موقف سورية العظيم ، أو موقف الأردن الكريم أو المملكة السعودية التى حظرت على الأمريكيين أن يرسلوا قطرة واحدة من البترول للدول المعتدية . وأذعنت أمريكا لهذا الأمر .

وصفوة القول أن الوحدة العربية الحقيقية — وهى وحدة الشعوب والمشاعر والعاطفة — قد تجلت فى هذه المحنة فى أقوى صورة وأروعها .

ومما يجدر بالذكر أن هنالك — خارج دائرة العروبة — أمماً وحكومات اتخذت مواقف بالغة منتهى النبل ، وأبدت من العطف على مصر ، والتحمس لقضيتها ، ما يرفع العلاقات الدولية إلى أسمى المراتب . وفى طليعة هذه الدول الهند والصين ودول باندونج عامة . ولا يفوتنا أن ننوه بموقف حكومة كندا التى لم تتردد فى الجهر بمعارضة السياسة الإنجليزية . فكان موقفها هذا أشد إيلاماً لحكومة إيدن من موقف أعضاء الكمنولث غير السكسونيين . . .

ومهما ضاق بنا المقام فى مقالنا هذا فإنه لا يمكن أن يضيق عن التنويه بالزعيم الهندى جواهر لال نهرو الذى جعل من هذه القضية

قضيته وقضية شعبه ، وأبدى منذ اللحظة الأولى ـــ دون تردد أو تريث ـــ سخطه الشديد على العدوان الغاشم ، وأخذ يعلن هذا السخط فى كل مناسبة فى عبارات بالغة منتهى القوة . ويشعر كل سامع أو قارئ أنه يصدر فى أقواله عن إيمان وعقيدة . وكان أكبر ما يخشاه أن يستفحل الشر ويستحيل إلى نزاع عالمى ، وهكذا أثبت نهرو أنه زعيم من أكبر زعماء السياسة العالمية ، وأن نظرته للأمور ليست محدودة بحدود جغرافية .

* * *

عواقب الغزو الثلاثى

لا بد لنا فى ختام هذا الفصل من ذكر شىء عن عواقب ذلك الغزو الثلاثى الغريب الذى يوشك ألا يكون له فى التاريخ مثيل . والمقام لا يسمح بدراسة مفصلة لتلك العواقب . ولعله ليس من الحزم أن نسهب الآن فى الحديث عن النتائج أو العواقب ؛ لأننا ما زلنا نعيش وسط عواقب ذلك الغزو ، ولم تظهر بعد للعيان تماماً صورتها متكاملة . ولاشك أن المستقبل سيكشف عن نتائج لذلك الغزو ليست واضحة المعالم بعد .

لهذا نورد فى الفقرات التالية بكل تحفظ ما يبدو لنا أن من الممكن المبادرة بذكره فى هذا الصدد :

إن أول ما يسترعى انتباهنا أمر أظهره العدوان بقوة حتى أحسه العالم كله . ولئن كان هذا الأمر من قبل واضحاً كل الوضوح لكثير من

المفكرين — إن العدوان قد أبرزه ، حتى كاد يلمسه كل إنسان ، وهذا الأمر هو ما لمركز القطر المصرى من الخطر فى العالم كله . فقد أثبت العدوان الإنجليزى الفرنسى أن مصر بحكم موقعها وسط العالم هى حجر الزاوية الذى يمسك بناء الشرق الأوسط والعالم العربى . ولئن سقطت مصر كما أراد لها إيدن وعصابته — إن بناء العالم العربى لن يستطيع الثبات ، وسينهار فى أثره بناء الشرق الأوسط ، فينشب الاستعمار مخالبه فى هذا الإقليم الحيوى من العالم ، ثم لا يلبث أن يستشرى ، وأن ينشر أذاه وطغيانه فى القارتين الإفريقية والآسيوية ! وذلك ما كانت تحلم به كل من بريطانيا وفرنسا . . ولقد روى عن نابليون أنه زعم أن مصر أهم بلد فى العالم . وقد أظهر هذا العدوان الأخير ما اشتملت عليه هذه العبارة من صدق . وهذا المركز الجغرافى الممتاز يفرض على مصر أن ترقى بسياستها الداخلية والخارجية إلى مستوى رفيع .

ومما يتصل بهذا الأمر أن مصر قد شقت فى أرضها قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر وتربط بين شرقى العالم وغربيه . وما دامت هذه القناة تؤدى وظيفتها بانتظام فإن العالم لا يكاد يحس مالها من شأن وخطر . ومنذ افتتاحها فى عام ١٨٦٩ إلى اليوم لم يقم أحد أو قوة بتعطيلها ؛ فلم يكن أمام العالم مثال ملموس لما يترتب على هذا التعطيل . ثم جاء العدوان الغاشم فأدى إلى تدمير السفن وتعطيل الملاحة فى القناة ، فإذا العالم يناله الكثير من الأذى والحرمان بسبب هذا التعطيل . وكان بعض الدول يزعم أنه يخاف مصر على القناة ، فإذا التعطيل يجىء من الدول التى تزعم أنها

شديدة الحرص على حرية الملاحة فى القناة ! فلعل العالم اليوم يدرك أن مصر هى آخر من يفكر فى تعطيل الملاحة فى القناة . كما آن له أن يدرك أن مصر حين سمحت بشق القناة قد أولت العالم كله منة جليلة ونعمة عظيمة . وما أجدر العالم أن يعترف لها بهذا الجميل !

ومن أهم نتائج الغزو أنه أتاح لمصر أن تعرف نفسها ، وأصبح قادة الأمة يعلمون علم اليقين مبلغ ما فى الشعب من القوة والاستعداد . وقد لمسوا تفانيه فى الإخلاص لمن يتفانون فى خدمته . ولو قدّر لمصر أن تمر بها محنة أخرى فإنها ستقتحمها بقلب ملؤه الثقة والعزم ، وسنعرف كيف نعبىء قوانا ونوجه جهودنا فى حزم وإيمان .

وقد ترتب على العدوان الغاشم زوال الاتفاقية القائمة بين مصر وبريطانيا التى وقعت بنودها فى ٢٧ من يولية وأبرمت فى ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٤ وكانت تنص من جهة على جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر بعد عشرين شهراً ، وكان عددها وقت توقيع الاتفاق ٨٣,٠٠٠ شخص ؛ ومن جهة أخرى تنص على عودة الاحتلال إذا ما تعرضت مصر أو أعضاء جامعة الدول العربية المرتبطة فى ذلك الوقت بميثاق الضمان الجماعى أو تركيا — للعدوان فى أثناء السنوات السبع التالية لتوقيع الاتفاقية . وفى هذه الحالة تقدم مصر جميع التسهيلات فى الموانى والمطارات وطرق المواصلات وغير ذلك من مظاهر الاحتلال .

كذلك جاء فى أحد البنود الاعتراف بأن قناة السويس البحرية — وهى جزء لا يتجزأ من أرض مصر — طريق له أهمية دولية من جهة النواحى

الاقتصادية والتجارية والعسكرية ؛ ولذلك يصر الفريقان المتعاقدان على احترام اتفاق ١٨٨٨ الذى يضمن حرية الملاحة فى القناة .

ولا شك أن النص على عودة الاحتلال بما اشتمل عليه من مظاهر سمجة ممقوتة ، كان أمراً كريهاً على المفاوض المصرى ، ولكنا قبلناه ثمناً للجلاء عن أرضنا ، ولعلنا كنا مؤمنين بأن الظروف التى نصت عليها الاتفاقية لعودة الاحتلال بعيدة الاحتمال .

قضى العدوان البريطانى على تلك المعاهدة القضاء المبرم . وبديهى أن مصر ليست هى التى قتلتها ، بل قتلتها بريطانيا بعدوانها الجنونى الأثيم . فإن أساس تلك الإتفاقية التى صُدِّرت به بنودها هو « العمل على بناء العلاقات المصرية البريطانية على أساس جديد من التفاهم المتبادل والصداقة الثابتة » . ولن يستطيع أحد حتى إيدن نفسه أن ينكر أن بريطانيا قد قوضت ذلك الأساس بتدبيرها وتزعمها لذلك العدوان الدنىء الذى لا يمكن أن يبقى معه تفاهم متبادل أو صداقة ثابتة . فمصر إذن لم تنه الإتفاقية ، بل اعترفت فقط بأنها لم يصبح لها وجود .

* * *

ومن نتائج العدوان أن الصهيونيين قد كشفوا للعالم العربى عن المصير الذى يريدونه للأقطار العربية كلها . فلم يكد يستقر بهم المقام فى سيناء حتى أعلنوا أنها ليست من أرض مصر ، وأنها ملك خالص لهم . ثم أثبتوا للعالم كله أنهم قوم لا يعرفون معنى للذمة وحفظ العهد ، وأنهم لا يتورعون عن ارتكاب أفظع الجرائم التى تنزل بهم إلى الدرك الأسفل من النذالة

واللؤم . كما أثبتوا مرة أخرى أن سياستهم فى دير ياسين لا تزال هى سياستهم ، ولا يزال قتل النساء والعجزة والأطفال دينهم وديدنهم !

ولعل أهم نتيجة للعدوان من وجهة نظر المعتدين ، أنه منى بالفشل التام : فقد أعلن المعتدون فى إنذارهم يوم ٣٠ من أكتوبر أن أدنى مطالبهم احتلال السويس والإسماعيلية وبورسعيد ، كما أعلنت منشوراتهم الساقطة من السماء أنهم يريدون إسقاط حكومة الثورة ، ودلت أعمالهم الصبيانية على أن من أهم أهدافهم تعطيل الإذاعة المصرية الموجهة إلى العالم العربى .

وصفوة القول أنهم كانوا يرمون إلى إذلال مصر واستعبادها ؛ بحيث تخضع لهم خضوعاً تاماً ، وبخضوعها يتقلص ظل الحرية والاستقلال عن جميع بلاد العالم العربى مشرقه ومغربه . ويعود العهد الاستعمارى إلى الازدهار ؛ وتستطيع كل من فرنسا وإنجلترة أن تحس أنها لم تعد دولة فى المرتبة الثانية أو الثالثة ، وأن فى وسعها أن تتخلص من ذلك الاستعباد الأمريكى الذى يغللها بأصفاد شداد ، ويعاملها معاملة من يمنّ عليها بلقمة الخبز التى تقتات بها من يديه !

تلك كانت بغية الإنجليز والفرنسيين ، وتلك كانت أهدافهم . وقد منيت هذه الأمانى بالفشل الذريع . وارتدّ العدوان عن أهدافه بالحسرة والضغينة . وعادت إنجلترة تمدّ يد الضراعة والاستجداء إلى الولايات المتحدة : تستجدى البترول للصناعة والتدفئة والحركة ، وتستجدى ملايين الدولارات لتقى عملتها شر التدهور ، كما التمست من أمريكا

إعفاءها من تسديد القرض المستحق الأداء .

وهكذا عادت إنجلترة خاضعة ذليلة تمشى كالكلب وراء الولايات المتحدة ، وذنبها بين رجليها . ولا بد لها أن تطيع وأن تقبل ما يفرض عليها بدون قيد ولا شرط ؛ لأن السائل — كما يقول المثل الإنجليزى — لا يستطيع أن يفرض شروطاً .

على أن مصر جديرة — وهى ترى العدوان يرتد بالفشل والخزى — ألا تهمل الحذر واليقظة ؛ فإن العدوان قد يتخذ سبيلا جديدة أو صوراً جديدة . ومن الصعب أن نتصور كيف تعود الصلات بين مصر وبريطانيا ولو إلى أقل مما كانت عليه ما دامت شئونها فى يد حكومة تدين فى القرن العشرين بعقلية القرن الماضى . ولا تزال ترى العدوان سبيلا مشروعاً ، والكذب والحنث والخيانة أسلحتها المفضلة !

وقد أدركت حكومة الولايات المتحدة أن ما اقترفته إنجلترة وفرنسا من المنكر قد انهار معه كل ما كان لهما من سمعة أو مكانة فى العالم العربى . وهذا إدراك سليم ؛ ولكن ليس من الإدراك السليم أن تتوهم أمريكا أن سقوط تلك المكانة قد ترك فراغاً فى مصر أو فى البلاد العربية ؛ فإن اعتناق نظرية « الفراغ » هذه ، يجعلنا مع الأسف نعتقد أن فى ساسة أمريكا نقطة ضعف نحو حلفائهم ، وميلا إلى الاقتناع بترّهاتهم ؛ فنظرية الفراغ تقوم على رأى استعمارى قديم ، وطالما اتخذ المستعمرون من هذه النظرية حجة لبسط طغيانهم ولسلب الأمم حريتها واستقلالها . وجدير بأمريكا ألا تنخدع بتلك الحجج الواهية .

* * *

ولا بد لنا أن نذكر — فى ختام هذا البحث — أن ذلك العدوان العجيب قد حدث فى وقت كان يُظن فيه أن عهد الاستعمار مشرف على الزوال . فكيف تسنى لهذا الأفعوان أن يرفع رأسه ، بعد أن خيل للناس أن أجله قد دنا ؟

من الجائز أن ذلك العدوان يمثل انتعاشة المحتضر ، فمن المألوف أن يدب النشاط ساعة فى المريض قبل أن تدركه منيته . غير أننا خليقون أن ندرك أن شهوة الاستعمار لا تزال تحرك النفوس وتتسلط على العقول . وأن من واجبنا أن نظل فى يقظة دائمة وأن نضاعف من قوتنا واستعدادنا .

إن غفلة الشعوب أكبر محرّض على العدوان .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

